دكتور محمد حسن شرشر

قطوف
من النصوص الأدبية الرفيعة
في الجاهلية وصدر الإسلام

الطبعة الأولى
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين ،

وبعد :

فهذه قطوف لبعض الثمار اليانعة من رياض النصوص الأدبية الرفيعة ، فى العصرين الجاهلى وصدر الاسلام .

توخيت — فى اختيارها — المعنى القويم واللفظ العذب الرشيق . وقد حرصت أن تتجمل بشرح بعض عمالقة الفكر والأدب ، وبخاصة الخطيب التبريزى الذى تألق فى سماء العلم النافع ، والتذوق الأدبى الرفيع .

والله أسأل أن تؤتى ثمارها المرجوة .

وعلى الله أتوكل ، وبه أستعين .

محمد حسن شرشر

الشعر الجاهلى

الشعر تعبير عن خوالج النفس ، وتصوير لمظاهر الطبيعة ، وصورة صادقة من الحياة .

ومن ثم فإننا نجد الشعر الجاهلى صورة لحياة العرب فى الجاهلية يعكس طباعهم وأخلاقهم التى من أهمها الشجاعة والكرم ، وإيواء الضيف ، والوفاء بالعهد ، والذود عن الحمى ، وإغاثة الملهوف ، وحماية الجار .

ولما كان الشعر الجاهلى ديوان العرب ، ومرآة حياتهم ، فقد تناول أغراضا كثيرة اقتضتها البيئة العربية ، فجاءت صدى لحياتهم ، وتعبيرا صادقا عن مشاعرهم .

ومن هذه الأغراض .

الحماسة : كقول عمرو بن كلثوم :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها	ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا ما الملك سام الناس خسفا	أبينا أن نقر الخسف فينا(١)
نسمى ظالمين وما ظلمنا	ولكنا سنبدأ ظالمينا(٢)
إذا بلغ الفطام لنا صبى	تخر له الجبابرة ساجدينا

(١) الخسف هنا : الظلم والنقصان ، يصف الشاعر عزتهم ، وأن الملوك لا تصل إلى ظلمهم

(٢) يروى « بغاة ظالمين ، وما ظلمنا »

ملأنا البحر حتى ضاق عنا   وظهر البحر نملؤه سفينا «١»
ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا «٢»

والوصف : كقول عنتر بن شداد .

يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطان بئر فى لبان الأدهم «٣»
مازلت أرميهم بغرة وجهه
ولبانه حتى تسربل بالدم «٤»

«١» «ظهر» منصوب على إضمار فعل ، ليعطف على ما عمل فيه الفعل ، وإن شئت رفعته على الابتداء ، وعطفت جملة على جملة ، ويروى «وسط البحر» ويروى «ونحن البحر» .

«٢» معناه نهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله ، فنسب الجهل إلى نفسه وهو يريد الاهلاك والمعاقبة ليزدوج اللفظتان فتكون الثانية على مثل لفظة الأولى ، وهى تخالفها فى المعنى لأن فى ذلك أخف على اللسان وأحضر من اختلافهما .

وهذا نوع من البديع يسميه علماء البلاغة «المشاكلة» وحقيقتها : أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته .

«٣» الواو فى قوله : «والرماح» واو الحال ، والأشطان جمع شطن وهو «حبل البئر» يريد أن الرماح فى صدر هذا الفرس بمنزلة حبال البئر من الدلاء .

واللبان : الصدر ، والأدهم : فرسه .

«٤» يروى «بثغرة نحره» والثغرة : الهزمة التى فى الحلق ، واللبان : الصدر . وتسربل : صار بمنزلة السربال وهو القميص وكل مايلبس .

فازور من وقع القنا بلبانه
وشكا إلى بعبرة وتحمحم «١»

والمدح كقول زهير بن أبي سلمى :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم «٢»

يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم «٣»

تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم «٤»

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا
بمال ومعروف من القول نسلم «٥»

«١» ازور : مال ، والتحمحم : صوت مقطع ليس بالصهيل .

«٢» البيت : المراد به الكعبة ، وجرهم : قبيلة عربية قديمة كان أفرادها يتولون خدمة الكعبة

«٣» السيدان هما : هرم بن سنان ، والحارث بن عوف ، والسحيل : الحبل الذى يفتل فتلا واحدا ، ويرمز به لوقت الرخاء ، والمبرم : الحبل الذى أحكم فتله ويرمز به لوقت الشدة .

«٤» منشم : اسم امرأة كانت تبيع العطر ، وقد تعطر قوم بعطرها ، وخرجوا للحرب فقتلوا جميعا ، وتشاءم العرب منها .

«٥» يروى « من الأمر نسلم » ومعنى واسع : ممكن ، وقوله نسلم : أى نسلم من الحرب ، والسلم بكسر السين وفتحها : الصلح : يذكر ويؤنث

فأصبحتما منها على خير موطن
بعيدين فيها من عقوق ومأثم(١)

عظيمين في عليا معد هديتما
ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم(٢)

والرثاء: كقول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

يؤرقني التذكر حين أمسي
فأصبح قد بليت بفرط نكس؟(٣)

على صخر، وأي فتى كصخر
ليوم كريهة، وطعان خلس؟(٤)

فلم أر مثله رزءا لجن
ولم أر مثله رزء الانس(٥)

أشد على صروف الدهر أيدا
وأفضل في الخطوب بغير لبس(٦)

---

(١) منها: من الحرب: أي لم تركبا منها مالا يحل لكما، ونصب «بعيدين» على الحال، وخير أصبحتما «على خير» والعقوق قطيعة الرحم

(٢) عليا معد، وعلياء معد: أرفعها، ويعظم أي يأتي بأمر عظيم ويعظم: يصير عظيما. ويعظم، أي يعظمه الناس.

(٣) النكس: عودة المرض من النقة، وفرطه: مجاوزته الحد

(٤) يوم كريهة: يوم حرب، وطعان خلس: الطعن السريع في مهارة وخفاء.

(٥) رزءا: مصيبة

(٦) صروف الدهر: مصائبه، أيدا: قوة. الخطوب الأحداث، والمتاعب، لبس، شبهة

وضيف طارق أو مستجير يروع قلبه من كل جرس(١)
فأكرمه وأمنه فأمسى خليا باله من كل بؤس(٢)

وغير ذلك من الأغراض كالفخر والنسيب والهجاء

وإليك بعض النصوص الأدبية الرفيعة التى صاغها فحول الشعراء فى العصر الجاهلى ،

(١) ضيف طارق : ينزل ليلا ، مستجير : يطلب الحماية ، يروع : يفزع
الجرس : الصوت

(٢) خليا باله : لاشىء يشغل نفسه

زهير بن أبي سلمى

التعريف بالشاعر :

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح بن قرط بن الحارث بن مازن .

وكان آل أبي سلمى حلفاء في بني عبد الله بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر ، ومن أجل هذا وهم ابن قتيبة في كتاب الشعراء فعد زهيراً من غطفان .

وأم زهير ابنة رجل من فهر بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان يقال له الغادر .

كان أبوه « أبو سلمى » شاعراً ، وكان « أوس » بن حجر زوج أمه فحل شعراء مضر ، وكان أوس عاقلا في شعره ، يصف مكارم الأخلاق ، ويضرب الأمثال .

وكان « بشامة » بن الغدير خال أبي سلمى شاعراً مجيداً .

ثم كانت أخت زهير « الخنساء » بنت ابي سلمى شاعرة ، وكانت أخته « سلمى » شاعرة أيضاً ، ثم كان أبناء كعب بن زهير وبجير بن زهير شاعرين . وكعب صاحب المدحه في رسول الله صلى الله عليه وسلم التي اشتهرت بالبرده . لأن رسول الله أجازه عليها بردته التي كان يلبسها ، والتي أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول

ثم كان ابن ابنه « المضرب » بن كعب بن زهير شاعراً ، واسم المضرب عقبة ، ثم كان « العوام » بن عقبة بن كعب بن زهير شاعراً .

وكان زهير ملازما لخال أبيه « بشامة بن الغدير » فتأثر بحكمته واغترف من معارفه ، ثم كان راوية لزوج أمه « أوس بن حجر » ، واقتبس زهير من أوس دقة الوصف وجودته ، وضرب الأمثال ، والولوع بوصف مكارم الأخلاق .

وزهير - فيما يرى العلماء - من عبيد الشعر ؛ لأنه عنى بتهذيب شعره وتنقيحه واصلاح ديباجته ، حتى ليقال : إنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ، ثم يهذبها ويجودها ، وينمق ألفاظها فى أربعة أشهر أخـــرى ، ثم يعرضها على خاصته فى أربعة أشهر أخرى ، ثم يذيعها فى الناس بعد ذلك ، واشتهرت له سبع قصائد من شعره باسم « الحوليات » .

وروى الجمحى عن أهل النظر « كان زهير أحصفهم شعرا ، وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة فى المدح ، وأكثرهم امثالا فى شعره » .

وقد روى عن زهير ابنه كعب ، ثم روى عن كعب الشاعر الحطيئة أحد عبيد الشعر أيضا ، وجميل بن معمر العذرى ، وكثير بن عبد الرحمن المعروف بكثير عزة .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يوما لجلسائه : أنشدونى لاشعر شعرائكم ، قيل : ومن هو ؟ قال : زهير ، قيل وبم صار كذلك ؟ قال : كان لا يعاظل بين القول (أى يمتنع عن التعقيد وتداخل الكلام بعضه فى بعض) وكان يتجنب وحش الشعر ، ولا يمدح أحدا بما فيه .

معلقته :

لما مشى الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان بالصلح بين عبس وذبيان ، وأطفأ نيران الحرب التى اشتعلت بينهما باحتمالها ديات القتلى عن الفريقين

— وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير — أثارت هذه الأريحية نفس زهير، وهاجت كوامن القول عنده فدحهما بقصيدته المعلقة التي سنقطف منها بعض الثمار اليانعة(١)

الوقوف على الأطلال وأثره في نفس الشاعر

١ — أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ❊ بحومانة الدراج فالمتثلم

---

١ — أم أوفى : زوجة الشاعر، الدمنة : ماسود من آثار الديار، حومانة الدراج والمتثلم : موضعان، وتنطق كلمة «الدراج» بفتح الدال وضمها، كما تنطق «المتثلم» بفتح اللام وكسرها، و «من» في قوله «أمن أم أوفى دمنة» للتبعيض، والتقدير «أمن دمن أم أوفى دمنة».

ومعنى «لم تكلم» لم تبين، والعرب تقول لكل ما يبين من أثر أو غيره «تكلم» أي مبين، فصار بمنزلة المتكلم.

هذا على سبيل الاستعارة، فقد شبه دلالة الحال بالكلام، ثم استعار الكلام لدلالة الحال. ومن العلماء من يخرجه على أنه إيجاز بالحذف، والأصل لم يتكلم أهلها، كقوله تعالى: «واسأل القرية».

وقد أخرج زهير الكلام في قوله «أمن أم أوفى .. الخ» في معرض الشك، ولم يخرجه مخرج الخبر المعلوم ليدل بذلك على أنه كان قد بعد عهده بهذه الديار، وطالت غيبته عنها، وأنها قد تغيرت تغيرا مفرطاً، فلهذا لم يعرفها معرفة قطع وتحقيق. =

---

(١) انظر: شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي بتحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد.

وانظر أيضا ترجمة زهير في الأغاني جـ ٩ — ٤٦ — ١٥٠، وخزانة الأدب جـ ١ ٣٧٥، وطبقات الجمحي ٣٢، ٥٢

٢ - ديار لها بالرقمتين كأنها   مراجع وشم فى نواشر معصم

٣ - بها العين والآرام يمشين خلفة
وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

= والمعنى : أمن منازل أم أوفى هذه الدمنة التى لاتجيب إذا كلمتها ؟ ألا تحيينى تلك الآثار التى أسود لونها ، وخيم عليها الصمت العميق بين الدراج فالمتثلم ؟

٢ - الرقمتان : موضعان ، أحدهما قرب المدينة ، والآخر قرب البصرة، وكان « لأم أوفى منزل بينهما » .

الوشم : الخضرة التى تحدث فى الجلد من غرز الابرة ، ومراجيع وشم جمع مرجوع وهو ما كرر مرة بعد أخرى حتى يثبت فى المعصم ، نواشر معصم : المعصم موضع السوار فى اليد ، والنواشر : عروق ظاهر الذراع .

وكان نساء الجاهلية يستعملن الوشم للزينة ، كما يفعل بعض الناس الآن، وقد شبه الشاعر آثار الديار بالوشم ، ويروى ، ودار لها بالرقمتين .

والمعنى : أن الزمن قد عدا على دار أم أوفى بالرقمتين ، وعبثت بها بها يد البلى ، فتلاشت معالمها ، ولم يبق منها إلا آثار قليلة ، كأنها بقايا وشم فى معصم حسناء .

٣ - العين : بقر الوحش : جمع عيناء ، سميت بذلك لسكهر عيونها . والآرام: الظباء جمع رئم ، أطلاؤها: أولادها : جمع طلا ، مجثم : الموضع الذى يجثم فيه أى يقام فيه خلفة ، فوج بعد فوج ، وقيل مختلفة هذه مدبرة وهذه صاعدة ، وهذه نازلة ، وخافة فى موضع الحال بمعنى مختلفات .

والمعنى أن هذه الدار أصبحت مسرحا لأسراب البقر الوحشى ، =

٤ — وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلأيا عرفت الدار بعد توهم

٥ — فلما عرفت الدار قلت لربعها
ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم

— والظباء هذه تقبل وتلك تدبر، ومكاناً ترتع فيه الأطلاء تستريح من عنائها حيناً، وتنهض من مراقدها حيناً آخر، بعد أن كانت عامرة بأهلها، تشع منها البهجة ويغمرها السرور.

٤ — الحجة: السنة، واللأى: البطء، قالوا المعنى. فبعد لأى كأنهم يقدرونه على الحذف، والأجود أن يكون المعنى: فعرفت الدار لأيا، ويكون قوله لأيا في موضع الحال والمعنى مبطئاً.

ومعنى البيت: إن عهدى بهـــذه الدار قد قدم حتى أشكلت على، ولم أتعرف عليها إلا بعد جهد جهيد، وتدبر وروية.

٥ — الربع: المنزل في الربيع، ثم كثر استعمالهم إياه حتى قيل لكل منزل ربع، «ألا أنعم صباحاً» أى كن في نعمة، تحية جاهلية، يراد بها سعد صباحك ونعم.

والمعنى: لما عرفت أنها ربع أم أوفى، عاودتنى ذكرياتها السعيدة، فحييت الربع ودعوت له بالسلامة على مر الأيام.

هذا. وفي البيت الأول - في قوله أمن أم أوفى - استفهام قد يراد به التوجع والحسرة.

وفي البيت الثاني - في قوله: كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم - تشبيه تمثيل، حيث شبه حال الديار، وقد تأثرت بعوامل الزمن من =

الاشادة بالعمل العظيم والثناء على أهله

٦ — سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما
تبزل ما بين العشـــيرة بالدم

=رياح وأمطار وغيرها بمال الوشم الذى أعيدت خطوطه مرات، يده فى معصم المرأة .

وفى البيت الثالث — بها العين والآرام يمشين خلفة .. الخ ، كناية عن اقفار الدار وخلوها من أهلها .

وفى البيت الرابع — فى قوله : لأيا عرفت الدار بعد توهم — كناية عن شدة التغير الذى أصابها .

وفى البيت الخامس - فى قوله : قلت لربعها - استعارة مكنية حيث شبه الرابع بإنسان يوجه إليه الخطاب ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قلت ،

(٦) الساعيان : الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، وقيل الحارث بن عوف وخارجة بن سنان ، سعيا فى الديات ، وقيل معنى « سعيا » عملا عملا صالحا .

غيظ بن مرة : من ولد عبد الله بن غطفان ، ومنه هذان الساعيان ، وتبزل تشقق ، أى كان بينهم صلح فتشق بالدم ، فسعى ساعيا غيظ بن مرة فأصلحاه والعشيرة الأهل والأقارب .

والمعنى قام السيدان الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وسعيا سعيا حثيثا لكى يتم الصلح بين عبس وذبيان بعد أن تمزقت صلات الرحم ، ووشائج القربى بينهما بسبب أراقة الدماء .

٧ — فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم

٨ — يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

٩ — تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

---

٧ — المراد بالبيت : الكعبة ، وجرهم ، كانوا ولاة البيت قبل قريش ، وبنوا بمكة ، واستحلوا حرمتها ، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها .

والمعنى : أقسم بالكعبة التى يقدسها العرب ؛ والتى بناها رجال من قريش وقامت بخدمتها قبيلة جرهم .

٨ — أصل السحيل والمبرم : أن المبرم يفتل خيطين حتى يصير خيطا واحدا . والسحيل : خيط واحد لا يضم إليه آخر .

ويرمز بالسحيل لوقت الرخاء ، وبالمبرم لوقت الشده ،

والمعنى : نعم السيدان أنتما فى حالتى الشدة والرخاء .

٩ — تفانوا : أفنى بعضهم بعضاً ، و « منشم » امرأة تبيع العطر ، وقد تحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها ، ثم خرجوا إلى الحرب فقتلوا جميعاً فتشاءمت العرب بها .

وقال أبو عبيدة : منشم اسم وضع لشدة الحرب ، وليس ثم امرأة ، كقولهم جاءوا على بكرة أبيهم ، وليس ثم بكر .

وقال أبو عمرو والشيبانى « منشم » امرأة من خزاعة كانت تبيع عطرا ، فإذا حاربوا اشتروا منها كافور الموتاهم ، فتشاءموا بها .

والمعنى : قد أدركتما بهذا الصلح عبسا وذبيان بعد أن أفنى بعضهم البعض وقضت على كثير منهم تلك الحرب الطاحنة .

١٠ — قد قلتم : إن ندرك السلم واسعاً
بمال ومعروف من الأمر نسلم

---

(١٠) واسعاً ، كاملا مكيناً ، نسلم : أى نسلم من الحرب ، والسلم بكسر السين وفتحها الصلح يذكر ويؤنث قال الشاعر .

فلا تضيقن إن السلم آمنة ملساء ليس بها وعث ولا ضيق

والمعروف : العمل الطيب الذى يبقى به صاحبه الخير .
ويروى « بمال ومعروف من الأمر نسلم » .

والمعنى : لقد آثرتما التضحية بالمال والجهد فى سبيل اقرار السلام بين القبيلتين ، ونشر الأمن والاطمئنان قبل أن يتفاقم الأمر ويتعذر الصلح .
هذا وفى قوله فى البيت السادس - تبزل ما بين العشيرة بالدم استعارة مكنية حيث شبه إراقة الدماء وأثرها فى إضعاف الروابط والصلات بين أبناء العشيرة بالمعاول الهدامة التى تقوض البنيان وتصدعه ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو تبزل » .

وفى البيت السابع - فى قوله « طاف حوله رجال » كناية عن سمو مكانة الكعبة ورفعة شأنها ، وعلو منزلتها فى نفوس العرب .

وفى البيت الثامن : فى قوله « على كل سحيل ومبرم » كناية عن استمرار رفعة الممدوحين فى حالتى الشدة والرخاء .

وفى البيت التاسع - فى قوله « بعد ما تفانوا ، ودقوا عطر منشم » استعارة تمثيلية ، حيث شبه حال عبس وذبيان ، وقد أفنى بعضهم بعضاً بحال القوم الذين تعطروا بعطر منشم ، ثم خرجوا للحرب فقتلوا جميعاً .
وفى البيت العاشر - فى قوله بمال ومعروف من الأمر نسلم - كناية عن الكرم وحب الخير .

نصيحة وتحذير

١١ — ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة
وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

١٢ — فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم
ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم

---

(١١) الأحلاف : أسد وغطفان هنا ، وأحدهم حلف ، وفلان حلف بنى فلان إذا منعوه ما يمنعون منه أنفسهم ، وأن يكون معهم يدا على غيرهم.

وذكر الزوزنى أن واحد الأحلاف حليف قال : جمع حليف على أحلاف ، كما جمع نجيب على أنجاب ، وشريف على أشراف ، وشهيد على أشهاد .

ويقال « ذبيان ، وذبيان ، والضم أكثر ، والمراد بالأحلاف القبائل التى حالفت ذبيان على حرب عبس .

ومعنى « هل أقسمتم كل مقسم » أى هل أقسمتم كل قسم أنكم تفعلون مالا ينبغى أو « قد أقسمتم » .

والمعنى : أبلغ ذبيان وأحلافها أنهم قد عقدوا الصلح وأقسموا على الوفاء بالعهد بكل الأيمان .

(١٢) ما فى نفوسكم : ما تخفونه وتضمرونه من نقض العهود ، يكتم : يخفى .

ولفظ الجلالة فى الموضعين مفعول للفعل يكتم والفعل يعلم جواب الشرط « مهما » .

=

١٣ — يؤخر، فيوضع فى كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم

= والمعنى : لا تظهروا الصلح وفى أنفسكم أن تغدروا ، فإن الله يعلم من ذلك ما تكتمونه .

وقال أبو جعفر : معنى البيت : لا تظهروا الصلح وفى أنفسكم أن تغدروا كما فعل حصين بن ضمضم إذ قتل ورد بن حابس بعد الصلح ، أى صححوا الصلح.

(١٣) يدخر ليوم الحساب : يحفظ لتحاسبوا عليه فى الآخرة ، يعجل تحاسبون عليه فى الدنيا .

والمعنى : إما أن يؤجل عقابكم على سوء نياتكم إلى يوم الحساب ، وإما أن يعجل بالانتقام منكم . ويدل هذا البيت على أن الشاعر كان يؤمن بالبعث والثواب والعقاب .

هذا . وقد بدأ الأبيات بكلمة « ألا » لينبه على أهمية ما سيقوله .

كما أن قوله « هل أقسمتم كل مقسم » استفهام يقصد به التقرير .

وكذلك قد شبه ما يخفى فى النفس بالشىء المادى المحسوس الذى يدخر لوقت الحاجة ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو «يؤخر ويوضع فى كتاب ويدخر» على سبيل الاستعارة المكنية .

هذا إلى جانب أن توالى « الفاءات » فى الشطر الأول من البيت الثالث عشر من الروعة بمكان ، حيث إن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب — كما هو معلوم — ومعنى ذلك أن الجزاء مهما تأخر فلا بد من وقوعه ، وأن وقوعه وشيك الحدوث .

وصف الحرب

١٤ — وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

١٥ — متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر إذا ضريتموها فتضرم

١٦ — فتعرككم عرك الرحا بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

---

(١٤) ذقتم : جربتم ، المرجم : المظنون .

والمعنى : ليست الحرب إلا ما جربتم وذقتم ، وأنتم بذلك أعلم الناس بحقيقة الحرب وأهوالها ، فقد مارستموها ، وخبرتم مآسيها ، وليس قولى عنها بالحديث المشكوك فيه بل هو حديث العالم المجرب الخبير .

(١٥) تبعثوها : تثيروها ، ذميمة : مذمومة ، تضر : تشتد ، تضرم : تشتعل .

والمعنى : إذا بعثتم الحرب ، ولم تقبلوا الصلح كان ذلك سببا فى تكررها واستئصالها لكم ، وستكون وخيمة العواقب ، بغيضة النتائج ، ويإشعالها سوف تزداد اشتعالا وسوف لا تخمد نيرانها حتى تقضى على الأخضر واليابس .

(١٦) تعرككم : تطحنكم وتهلككم ، والثفال : جلد يوضع تحت الرحى ليقع عليه الطحين والباء فى « بثفالها » بمعنى مع ، وتلقح كشافا : الكشاف : أن تحمل الناقة فى أثر نتاجها كل سنة ، وتتئم أى تلد اثنين فى مرة واحدة .

. . . .

— والمعنى أن الحرب تمزقكم كما تمزق الرحى ثفالها ، وتنتج لكم شرا مستطيرا ومصائب كثيرة .

هذا وللتنفير من الحرب وأهوالها ، وما يترتب عليها من الدمار والخراب وفناء الأنفس والأموال ، فقد شبهها بالنار يشتد أوارها فتحرق كل شيء أتت عليه ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله « فتضرم » على سبيل الاستعارة المكنية .

كما شبهها — أيضا — بالناقة التي تلد كثيرا ، وكل ما تلده مصدر شؤم وشر ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله : تلقح ، وتنتج ، وتتئم ، على سبيل الاستعارة المكنية أيضا .

وكذلك شبه الحرب وهي تطحن الناس طحنا فلا تبقى منها ولا تذر بالرحى التي تمزق ثفالها ، وتضغط عليه حتى لا تبقى منه شيئا . وهي — كما ترى — صورة تبعث في النفس الرعب والفزع من الحرب وويلاتها .

الحكم

١٧ — سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا — لا أبالك — يسأم

١٨ — وأعلم علم اليوم والامس قبله
ولكننى عن علم ما فى غد عم

١٩ — ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم

٢٠ — ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم

---

(١٧) سئمت : كرهت ، تكاليف الحياة . مشقاتها ، لا أبالك . عبارة تستعملها العرب عند الجفاء والغلظة وتشديد الامر ومعناها الدعاء ، وظاهرها الخير وتستعمل للحث والتنبيه ، والحول : العام .

والمعنى : عشت ثمانين عاما ، بلوت فيها الحياة ، فعرفت خيرها وشرها وذقت حلوها ومرها ، حتى سئمت أعباءها ، ومللت تكاليفها . ومن يعش مثلى لابد أن يشعر بذلك ، وينتابه الضيق والالم .

(١٨) عم . جاهل ، أى أعلم ما مضى فى أمس ، وما أنا فيه اليوم ، لانه شيء قد رأيته ، فأما ما فى غد فلا علم لى به ، لانى لم أره .

(١٩) يفره : أى يتمه ولا ينقصه ، من دون عرضه : وقاية له .

والمعنى : أن الذى يفعل الخير ، ويبذل المال يحمى شرفه ، ويصون عرضه . وإن الذى يسيء إلى الآخرين يساء اليه ، ويكون هدفا لبغضهم وسبهم .

(٢٠) يك : مجزوم بالشرط ، والاصل : يكن حذفت النون لكثرة =

٢١ — ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإن رام أسباب السماء بسلم

٢٢ — ومن يجعل المعروف فى غير أهله
يكن حمده ذما عليه ويندم

٢٣ — ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

٢٤ — وكائن ترى من صامت لك معجب
زيادته أو نقصه فى التكلم

= الاستهال .

والمعنى : أن الغنى الذى يضن بماله على قومه ، يستغنى عنه قومه ويذمونه .

(٢١) المنايا : جمع منية وهى الموت ، والمراد بأسباب المنايا ، أى ما يسبب الموت كالحروب ونحوها .

ورام : حاول ، والمعنى : أن الذى يخشى الموت، ويحذر لقاءه ، ويجبن عن مواجهة الاخطار يدركه الموت مهما تحصن منه ، أو توقاه بمختلف الوسائل .

(٢٢) المعنى : من أحسن الى من لا يستحق الاحسان نال الذم بدلا من الحمد ، فندم على عمله .

(٢٣) الخليقة : الطبيعة ، خالها . ظنها . والمعنى أن الإنسان مهما أخفى طبعه عن الناس لابد أن تكشف الأيام حقيقته .

(٢٤) كائن بمعنى : كم ، والمعنى : أن كلام الإنسان قد يرفع من شأنه ، وقد ينقص من قدره .

٢٥ — لسان الفتى نصـــف ، فؤاده
فلم يبق الا صـــورة اللحم والدم

---

(٢٥) المعنى : أن لسان الفتى يعتبر بمثابة نصفه ، فؤاده بمثابة النصف الآخر ، واللسان دليل العقل والفكر ، ومابقى من الانسان بعد ذلك ليس سوى صورة لحمه ودمه .

هذا وفى قوله « لكنتى هم » تشبيه بليغ ، وفى قوله « يجعل المعروف من دون عرضه » استعارة مكنية حيث شبه المعروف بالحاجز ، أو الدرع ثم حذف المشبه به ، ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو « يجعل من دون »

وفى قوله « هاب أسباب المنايا » كناية عن الجبن ، وفى قوله . لسان الفتى نصف ، و نصف فؤاده ، تشبيهان بليغان .

وفى هذه القصيدة نجد الشاعر قد بدأ معلقته بالغزل التقليدى الذى اعتاد الشعراء أن يجعلوه العنصر الافتتاحى فى قصائدهم ، وترى صورة صادقة لما فى بيئة العرب من بقر وغزلان تسير متنقلة مقبلة ومدبرة ، منها الجاثم ومنها القائم .

ونجد الشاعر يحيى الربع بتحية تقليدية عربية وهى « انعم صباحاً » والتعبير يتحلى بالصدق والوضوح .

وفى المدح يؤكد مدحه فيقسم بالكعبة ، وقد كانت مقدسة فى العصر الجاهلى ، كما هى مقدسة الآن ، وستظل مقدسة حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وكان العرب يطوفون بها ويلوذون بحماها ، وفى وصف الممدوحين بالسيادة فى جميع الاحوال تظهر صورة عربية مما يعمله العرب من جدل الحبال فقال : على كل حال من سحيل ومبرم .

وفى اسداء النصح للأحلاف يمثل الصدق فى مطالبته اياهم بالصراحة

. . . .

وصفاء القلب ، لأن الله يعلم ماتخفي الصدور ، ويبدى اعتقاده بيوم الحساب وماقيه من عقاب ،

وفي وصف الحرب يستخدم الشاعر صورا مستمدة من حياة العرب ، وهى الرحى والطحن ، وما يوضع تحتها لتلقى الطحين، فالرحى تطحن الحب وتلقى ماتطحنه على الثفال وكذلك الحرب تطحن الرجال فتطوى الارض جثثهم ، وحين أراد أن يصور كثرة الشرور والمآسى التى تنتج عن الحرب اتخذ كذلك من واقع حياة العرب مثلا النياق التى تلد كل عام ، أو مرتين فى العام .

وفى الحكم التى سردها نراه يستخدم فى التعبير عنها صورا من البيئة العربية كقوله « ومن لايذد عن حوضه بسلاحه » ففيه صورة من حياة العرب فى البادية ، وهى عنايتهم بموارد المياه والحرص عليها .

والمعلقة — بحق — صورة صادقة لحياة العرب ، وبيئتهم فى العصر الجاهلى (١) .

---

(١) انظر : شرح القصائد العشر للخطيب التبريزى ١٣٦-١٦٩ والادب والنصوص فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام ٤٠ ، ٤١ .

النابغة الذبيانى

التعريف بالشاعر :

هو زياد بن عمرو بن معاوية بن ضباب بن جابر .

ويكنى « أبا أمامة » و « أبا ثمامة » بابنتين له اسم احداهما أمامه ، واسم الأخرى ثمامة.

ويلقب « بالنابغة » ويختلف العلماء فى سبب تلقيبه بالنابغة ، ولهم فى ذلك أقوال منها : أنه كان أحسن الشعراء ديباجة ، وأجزلهم بيتا ، وأكثرهم رونق كلام ، فتغنى الناس بشعره ، فسموه النابغة من قولهم « نبغت الحمامة » إذا تغنت ، أو من قولهم « نبغ الماء » إذا نبع ، فكأنهم أراد وا بذلك أن له مادة لا تنقطع ، ولا ينضب معينها .

وقد اتصل النابغة الذبيانى بالنعمان بن المنذر ، بعد اتصاله بأبيه وجده فاستخلصه النعمان لنفسه ، فكان جليسه الذى لا يمل ، وانيسه الذى لا يجد أحد مساغا إليه متى حل ، وسبغ النعمان عليه فواضله حتى يقال : إنه كان يأكل ويشرب فى آنية الذهب والفضه من جوائزه .

وما زال النابغة يتفيأ ظلال الرغد ، ويرتع فى مراتع النعيم ، حتى دبت عقارب الغيرة فى صدور الوشاة والحاسدين فشوا بينه وبين الملك بالنميمة، فوقرت الوشاية فى نفس الملك ، وعلم النابغة أنه يتوعده فنجا بنفسه ، ولجأ إلى عمرو بن الحارث الغسانى ملك الشام يومئذ ، فأحله عنده فى الجناب الخصيب والحرم الآمن ، فما زال عنده فى دعة وخفض حتى بلغه أن الملك النعمان عليل ، فأخذ سمته إليه ، مقدما بين يديه تلك القصائد الروائع التى قالها فى الاعتذار ، فاستل بها موجدته ، واقتلع آثار الحسد البغيض، وحل

منه فى مكانه الأول ، وبقى معه حتى سئم العيش ومل الحياة ، وقد مات قبل الهجرة بقليل .

ومن قوله فى مدح النعمان بن المنذر والاعتذار إليه :

كذب الوشاة

١ — أتانى — أبيت اللعن — أنك لمتنى
وتلك التى أهتم منها وأنصب

٢ — فبت كأن العائدات فرشن لى
هراسا به يعلى فراش ويقشب

٣ — حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب

٤ — لئن كنت قد بلغت عنى وشاية
لمبلغك الواشى أغش وأكذب

---

(١) أبيت اللعن : جملة اعتراضيه ، الغرض منها الدعاء بالبعد عن أسباب الذم أهتم منها: أحزن بسببها ، تلك : أى تلك الملامة ، أنصب : أتعب.

والمعنى : بلغنى - وقاك الله كل زلل - أنك تعتب على وتلومنى ، ومن شأن ذلك أن يؤلمنى أشد الألم ، ويحزننى حزنا شديدا .

٢ — العائدات : الهموم التى تعاوده هراس : نبت : كثير الشوك ، يقشب : يخلط ويجدد . والمعنى فبت ساهرا قلقا حزينا كأنى مريض فرشت له الهموم شوكا لينام عليه .

٣ — الريبة : الشك ، مذهب . طريق .

والمعنى : ليس بعد الحلف بالله يمين ، فينبغى أن تصدقنى .

٤ — الوشايه : الحديث الذى يريد به صاحبه الافساد بين الناس =

سبب مدح الغسانيين

٥ — ولكنني كنت امرأ لى جانب
من الأرض فيــه مستراد ومذهب

٦ — ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم
أحــكم فى أمـوالهم وأقـرب

= والمعنى : إن كان الوشاة قد أبلغوك عنى شيئا ، فهم أشد الناس كذبا وخداعا ونفاقا ، وهم لا يقصدون إلا الوقيعة بينى وبينك .

هذا وفى قوله — أبيت اللعن — اعتراض قصد به الدعاء . وفى البيت الثانى « فبت كأن العائدات فرش لى . . الخ » استعارة تمثيليه حيث شبه الشاعر حالته ، وقد استبدت به الهموم والأحزان ، بحالة مريض فرشت له أو جاءه وآلامه التى تعاوده فراشا من شوك كلما ضعف تأثيره جددته ليظل قلقا .

وفى البيت الثالث : « حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . » كناية عن صدق الشاعر وبراءته مما نسب إليه واتهم به .

وفى البيت الرابع « حذف المسند إليه « فى بلغت » لا حتقاره والتقدير « لئن كنت قد بلغك الواش » .

(٥) لى جانب : أى متسع . فيه مستراد : اقبال وادبار والمعنى : لم أجد ملجأ لى فى الحيرة ، فقصدت الغساسنة باحثا عن رزق ولا لوم على فى ذلك .

(٦) ملوك واخوان : أراد الغسانيين الذين أكرموه حين نزل بهم ، أحكم فى أموالهم أتصرف فيها كما أشاء .

والمعنى : لقد وجدت هؤلاء الملوك والاخوان يتجملون برحابة الصدر والبشاشه ، وفوق هذا فأموالهم فى يدى أتصرف فيها كيفما أشاء .

٧ — كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم
فـلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا

يمدح النعمان

٨ — فـلا تتركنى بالوعيد كأننى
إلى الناس مطلى بـه القـار أجرب

٩ — ألم تر أن الله أعطاك سورة
ترى كل ملـك دونهـا يتذبذب

---

(٧) اصطنعتهم : اصطفيتهم من الناس ، وغمرتهم بمعروفك واحسانك .
والمعنى : وقد مدحتهم جزاء حسن استقبالهم لى ، وكرمهم الذى غمرونى به ولا غرابة فى ذلك فإنه كإغداقك على بعض الناس الذين يجيئون إليك يمدحونك ، ولا تجد فى مدحهم ذنبا عليه يلامون . هذا وفى قوله « فيه مستراد ومذهب » كناية عن كثرة الترحال .

وفى قوله « كفعلك فى قوم . . الخ » تشبيه تمثيل حيث شبه حاله مع الغسانيين ومدحه لهم جزاء معروفهم بحال من يمدحون النعمان جزاء اغداقه عليهم .

(٨) الوعيد : التخويف والتهديد ، إلى الناس : أى فى الناس ، القار : القطران مطلى به القار : مطلى بالقار .

والمعنى : لا تتركنى كالجمل الأجرب المطلى بالقطران المعزول عن باقى الجمال .

(٩) سورة : منزلة ومكانه وفضيلة ، يتذبذب : يضطرب ويهتز .

والمعنى : قد بوأك الله منزلة رفيعة ، وشرفا عظيما ، ولن يستطيع أى ملك من الملوك الوصول إلى هذه المنزلة ، أو بلوغ هذه الدرجة .

١٠ — فإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
١١ — ولست بمستبق أخالا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب

١٠ — والمعنى : ومن ثم فأنت أيها الملك بين الملوك كالشمس بين سائر الكواكب والشىء العظيم يتلاشى أمامه الشىء الحقير .

١١ — لاتلمه : لاتجمعه وتصلحه ، الشعث . التفرق والفساد ، والمعنى إذا أخذت كل إنسان بخطئه وهفوته فلن يبقى لك صديق واحد من الناس لأن الخطأ من طبيعة الانسان .

هذا وفى قوله : فلا تتركنى بالوعيد كأننى . البيت ، تشبيه تمثيل حيث يشبه الشاعر حاله وقد ابتعد عنه الناس واجتنبوه بسبب وعيدالنعمان ، بحال الجمل الأجرب الذى طلى بالقار ، فاشمأزت منه الإبل وابتعدت عنه وفى قوله ألم تر أن الله أعطاك سورة ، استفهام قصد به لتقرير .

وفى قوله « فإنك شمس » البيت تشبيه رائع حيث شبه الملك بين سائر الملوك بالشمس بين سائر الكواكب ، ووجه الشبه . الشىء العظيم يتلاشى أمامه الشىء الحقير .

وفى قوله : « أى الرجال المهذب » تذييل جميل جار مجرى المثل قصد به تأكيد مفهوم الكلام السابق

السموأل

التعريف بالشاعر :

نزل والد السموأل أو جده بأرض تيماء بين الحجاز والشام وشيد هناك قصرا من الحجر الأسود والأبيض . فدعى القصر بالأبلق ، وأصبح القصر محط القبائل ، وملجأ المسافرين ، تقام حوله الأسواق فى المواسم ، وحول هذا القصر حدثت القصة المشهورة التى ضحى فيها السموأل بدم ابنه ، ورفض أن يعطى دروع أمرىء القيس المودوعة عنده حين رحل هذا الشاعر إلى أرض الروم . ولقد رفض السموأل أن يعطى لغير الدروع لغير صاحبها ، حتى ولو كان ملك الغساسنة « الحارث بن أبى شمر الغسانى »

أهم ماعند السموأل ليس الشعر ، ولكن الموقف الأخلاقى ، والقصيدة الوحيدة التى ترتفع إلى مستوى الشعر ، هى التى أفصحت بشكل نشيد حماسى عن ذلك الموقف ، فتصاعدت قمم المروءة العربية فيها ، إلى أعلا آفاقها ، رفعة وشمما قل نظيرهما ، والسموأل نموذج أخلاق الوفاء ، كما كان الطائى نموذج أخلاق العطاء ، كما كان عنترة نموذج أخلاق الشجاعة .

ولامية السموأل أفضل ماقاله فى شعر الافتخار ، والاعتداد بالنسب والحسب ومجد الأهل وعزتهم ، وقدذهب كثير من أبياتها مثلا فى الحماسة وتأصيل الذات ، وشرف المحتد ، وتسير القصيدة حسب إيقاع متماوج القوة واللين ، متماسك البنيان ، وجاءت ألفاظها سهلة اجمالا ، وكأنها شبه نشيد جماعى ، ينشده القوم فى ساح المفاضلة وهم مشرفون على قتال واحتراب

نشيد السيادة

١ — إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

٢ — وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل

٣ — تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها : إن الكرام قليل

٤ — وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز ، وجار الأكثرين ذليل

---

(١) اللؤم : الخصال المذمومة .

والمعنى : إذا المرء لم يلحق شرفه الدنس ، فكل مظاهره وخصاله الاخرى سوف تبدو جميلة مستحسنة ، فكأن رأس الرذائل إذا هو ضياع الشرف .

٢ — الضيم : الظلم . وهنا بمعنى المكروه .

والمعنى: إذا لم يصبر الإنسان على المكاره عابه الناس ولاموه واحتقروه

٣ — تعيرنا : تندد بنا : والمعنى إن ابنة الحى ، قد أنكرت علينا قلة عددنا واعتبرته عارا ، فأجبتها إن الكرام قليلون ، والقلة لاتنفى القوة ، خاصة إن كانت فى القوم الأصلاء .

٤ — وما ضرنا . وأى شىء ضرنا ، والمعنى : إن جارنا عزيز الحمى فى حين أن الأقوام الاخرى، وان كثر عددهم، فإن جارهم لا ترعى حرمته =

٥ — لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل

٦ — رسا أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرع لاينال طويل

٧ — هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره
يعز على من رامه ويطول

— وهنا يفخر الشاعر بقومه، بأنهم أصحاب نجدة، وإغاثة الجار، والمستضعف وان كان عددهم قليلا .

(٥) جبل : أراد به حصنه الأبلق ، الطرف هنا بمعنى النظر .

والمعنى : لنا حصن حصين ، منيع على الأعداء ، فسيح إلى أبعد حدود النظر .

٦ — رسا أصله ، عمق أساسه .

والمعنى : لنا جبل صامد ، ثابت ، وكأنه أعلى طود على الأرض ، كناية عن مناعة فى حماهم وترفعهم .

٧ — هو حصن الأبلق الفريد من نوعه ، والذى عمت شهرته الآفاق وهو صعب المنال على كل من أراد أن يناله .

هذا وفى البيت الثانى « وإن هو لم يحمل . . إلخ » ايجاز قصر فى قوله فى قوله « لم يحمل على النفس ضيمها » فإن الضيم يشمل هنا كل مكروه .

وفى قوله فى البيت الرابع « جارنا عزيز » كناية عن شجاعتهم وبأسهم

وفى قوله « وجار الأكثرين ذليل » كناية عن ضعف غيرهم ومهانتهم

كما نجد الكناية عن الشرف والعزة والسيادة تتجلى فى البيت الخامس والسادس والسابع

٨ — وإنا لقوم لانرى القتل سبة
إذا مارأته عامر وسلول

٩ — يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول

١٠ — تسيل على حد الظبات نفوسنا
وليست على غير الظبات تسيل

١١ — صفونا لم نكدر وأخلص سرنا
اناث أطابت حملنا وفحول

---

٨ — السبة : الشتم ، وهنا يعنى العار ، عامر : بنو عامر بن صعصعه سلول : بنو مرة صعصعة بن بكر بن هوزان .

والمعنى : إذا حسبت عامر وسلول أن القتل عار ، فعشيرتى تعده فخرا وسؤددا ويستطرد الشاعر فى هذا البيت من مدح قومه إلى هجو عامر وسلول

٩ — نغتبط باقتحامنا المنايا ، ونرتاح للموت ، أما بنو عامر وسلول ، فيطول عمرهم لمجانبتهم القتال ، حبا للحياة . وكرها للموت ، ويقصد أنهم جبناء .

١٠ — الظبات : جمع ظبة ، مضرب السيف أو شفرته ، النفوس : يعنى الدماء

والمعنى : وكأن أحدا من قومه لايموت إلا وهو فى ساح الوغى ، وبذلك لايرضى أحد لنفسه سوى هذه النهاية ، لأنها وحدها النهاية التى تليق بالفارس السيد .

١١ — صفونا : أى صفت أنسابنا ، السر الأصل الجيد كالعرض —

١٢ — علونا إلى خير الظهور وحطنا
لوقت إلى خير البطون نزول

١٣ — فنحن كماء المزن مافى نصابنا
كهام ولا فينا يعد بخيل

١٤ — وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول

— والمعنى : أننا شرفاء الأصل ، وقد صفت أنسابنا ، فلم يشبها كدر لأن نساءنا أصيلات لاتخن رجالهن ، وجاءت أصالتنا من آبائنا وأمهاتنا معا

١٢ — نسبنا صريح لاتشبه شائبة ، فعلونا إلى خير الظهور ، وانحدرنا إلى خير البطون أى جاء نسلهم من أفضل الرجال والنساء معا .

١٣ — المزن . السحاب الأبيض ، النصاب :الأصل ، الكهام :الضعيف المسن

والمعنى : يريد بذلك تشبيه صفاء أنسابهم ، بصفاء ماء المطر ، فهم كا المزن وكل منهم نافذ ماض ، وليس فيهم بخيل

١٤ — اننا لشدة بأسنا ، نستطيع أن نفرض آراءنا على غيرنا ، بينما لايستطيع الآخرون ذلك . وهكذا فإن القوة هنا هى التى تقود الحقيقة فى مجتمع الفروسية .

هذا وفى قوله « إنا لقوم لانرى الموت سبة . . . الخ » استطراد (وهو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به .

وفى قوله : « يقرب حب الموت آجالنا » كناية عن شجاعتهم ، وفى قوله « تكرهه آجالهم فتطول » كناية عن جبن أعدائهم

وفى قوله : « تسيل على حد الظبات نفوسنا » مجاز مرسل فى كلمة نفوسنا —

١٥ — إذا سيد منا خلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول

١٦ — وما خمدت نارلنا دون طارق
وماذمنا في النازلين نزيل

١٧ — وأيامنا مشهورة في عدونا
لها غرر معلومة وحجول

— حيث أطلقها وارد الدماء ، والنفوس كل للدماء ، والعلاقة الكلية والقرينة تسيل ، لأن السيلان من صفات الدماء

وفي قوله « وأخلص سرنا اناث أطابت حملنا وفحول » كناية عن شرف الأصل :

وفي قوله « فنحن كماء المزن » تشبيه حيث شبه أنسابهم بماء المزن في الصفاء

وفي قوله : « وننكر إن شئنا على الناس قولهم » كناية عن قوتهم وبأسهم .

وفي قوله « ولا ينكرون القول حين نقول » كناية عن ضعف وجبن أعدائهم

١٥ — إن السيادة مستقرة فينا حتى إذا مات منا سيد خلفه سيد يقول ما تقوله الكرام ويفعل ما تفعله . فكأن السلالة كلها إذن سلسلة الأسياد العظماء

١٦ يشير بذلك إلى أنهم لكثرة كرمهم يديمون إيقاد نار الضيافة ولا يطفئونها دون طارق ليل ويثني عليهم كل نزيل

١٧ — أيامنا ، معاركنا . غرر : جمع غرة ، البياض في جبين الفرس . حجول : جمع الحجل ، البياض في وسغ الفرس —

١٨ — وأسيافنا فى كل شرق ومغرب
بها من قراع الدراعين فلول

١٩ — معودة أن لاتسل نصالها
فتغمد حتى يستباح قبيل

٢٠ — سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول

٢١ — فإن بنى الريان قطب لقومهم
تدور رحاهم حولهم وتجول

— والمعنى معاركنا مشهورة عند أعدائنا فهى بين الأيام كالأفراس الغر المحجلة بين الخيل .

١٨ — قراع والمقارعة : المضاربة . فلول جمع فل وهو الكسر والمعنى : أسيافنا تفللت أى تكسرت من كثرة ضرب الأعداء بها

١٩ القبيل : الفرق بين القبيل والقبيلة أن القبيل من آباء شتى ، وأن القبيلة من أب واحد

والمعنى وقد عودت أسيافنا أن لاتجرد من أغمادها وترد فيها إلا بعد يستباح القبيل ، أى القوم العدو المطعون فى نسبه وأصالته

٢٠ — يخاطب إحداهين ويقول إن كنت جاهلة بنا فسلى الناس تخبرى بحالنا فلا يستوى العالم والجاهل

٢١ — القطب : الحديد الذى فى وسط الطبق الأسفل من الرحى يدور عليه الطبق الأعلى . بنو الريان : بنو يزيد بن قطن بن زياد الحارث

المعنى : يريد أن أمر قبيلتهم لايستقيم ولا يتم إلا بهم مثل الرحى لايتم أمرها إلا بالقطب الذى فى وسطها

هذا وفي قوله « قؤول كما قال الكرام » كناية عن بلاغتهم .

وفي قوله « ما أخمدت نارلنا دون طارق . البيت » كناية عن كرمهم وسخائهم

وفي قوله « أيامنا مشهورة في عدونا . الخ » الأبيات كناية عن شجاعتهم وسطاتهم وقوة بأسهم

وهذه القصيدة جديرة بحق أن تكون نشيد الفروسية المتغالية(١)

---

(١) انظر موسوعة الشعر العربي ٣١١ — ٣١٥

رثاء لأبي ذؤيب الهذلي

تعريف بالشاعر :

هو خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم ، ينتهي نسبه إلى نزار . وكنيته أبو ذؤيب

نشأ مع أهله في السروات ، وهي هضاب تفصل بين تهامة ونجد ، وكان موطنه قريبا من جبل «غزوان» بالطائف ، وكان لهذه النشأة أثرها في شجاعته وبلاغته ، ورقته وعاطفته المشبوبة .

عاش أبو ذؤيب في الجاهلية ردحا من الزمان ، ثم شاهد الأضواء الايمانية والأعلام الاسلامية تنير معالم السارين ، وتهدى أبناء الانسانية سواء السبيل ، فاستضاء بنورها ، ونعم بفجرها ، وأفاد من أشعتها الذهبية التي انطلقت من كل مكان .

وعلى هذا فهو من المخضرمين الذين حضروا الجاهلية والاسلام ، وأسلم وحسن اسلامه .

وقد روى صاحب الأمالي أنه ذهب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومعه واحد من أبنائه وابن أخ له يسمى « أبا عبيد » فلما دخلوا على عمر سألوه : أي العمل أفضل يا أمير المؤمنين ؟ قال الايمان بالله ورسوله . قال أبو ذؤيب قد فعلته . فأيه أفضل بعده ؟ قال الجهاد في سبيل الله . قال ذلك كان على ، وإني لا أرجو جنة ولا أخاف نارا .

ثم خرج غازيا أرض الروم مع المسلمين ، فلما رجعوا من الغزو حضرته الوفاة .

وقيل إنه مات فى زمن عثمان رضى الله عنه فى طريق مصر ، ودفنه ابن الزبير ، وكان معه ، وقال أبو عمر الشيبانى مات فى طريق افريقية .

وكانت وفاته - رحمه الله - ٢٤ هـ ، أو ٢٦ هـ

وأبو ذؤيب من الشعراء الفحول الذين ذاع صيتهم ، وعلا قدرهم . سئل حسان بن ثابت : من أشعر الناس ؟ قال : أحيا أم رجلا قيل حياً ، قال أشعر الناس حيا هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب .

هذا . وقد كان لأبى ذؤيب خمسة أبناء شجعان أقوياء ، هاجروا إلى مصر فأصابهم الطاعون ، فماتوا جميعاً فى عام واحد ، فرثاهم بقصيدة رائعة إليك طرفا منها(١) .

قال أبو ذؤيب :

١ — أمن المنون وريبها تتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع

---

١ — اللغة « المنون » المنية ، أو الدهر ، يذكر ويؤنث ، « ريبها » ما يأتى من المصائب والفجائع .

ويروى : وريبه « التوجع » التألم ، وربما أريد به معنى التشكى ، « معتب » مراجع له بما يحب .

---

(١) انظر : المفضليات جـ ٣ ١٣٩٧ ، ومختارات من روائع الأدب ١٦٤ ، ١٦٩ د - عبد السلام سرحان ، ومن الأدب العربى القديم ٨٣ ، د - حسن جاد ، التاريخ الأدبى لمصرين الجاهلى والإسلامى الأول ١٦٦ د - على العمارى .

. . . .

= والعتبى : المراجعة ـ يقال أستعتبه فأعتبه ، أى استرضاه فأرضاه ، فالاعتاب فعل مايرضى و « يجزع » يحزن ويفزع ويخاف .

المعنى . ينكر الشاعر أن يشكو الإنسان إلى الدهر ما أصابه ، من ألم ، وأن يتوجع إليه رجاء أن يعطف عليه ، فليس من طبع الدهر وعاداته أن يرضى الجازع ، ويغيث المكروب .

وإنما الواجب على الإنسان أن يصبر ، ويتقبل تصرفات الزمان ، لأن الدهر لن يرجع عما قدم من إساءات ، فمن العبث أن يستسلم المرء للأحزان .

الشاعر لم يصرخ ولم يستنجد الدمع ، وإنما يتوجع ، والتوجع أجل من الصراخ وأملك للروح والقلب ، وأشبه بالرجولة والركانة ، والشاعر ينكر على نفسه أن يتوجع لا لأن المصاب لا يقتضى التوجع ، ولكن لأن المنون وريبها مما لا ينبغى لعاقل أن يتوجع منه إذ هى حدث من أحداث الدهر ، ومن طبع هذا الدهر أنه لا يعتب من يجزع ، وإنما هو ماض بسننه ونظامه غير ملتفت إلى من يبكى أو يتوجع .

الاستفهام هنا فيه عتاب رفيق بالنفس ، ولفت ناعم إلى ماهى فيه من خطأ حين تتوجع من ريب الدهر ، وهو ليس بمعتب .

وأبو ذؤيب كان دقيقاً فى صياغته مبيناً عن خفى حسه وفكرته ، فقد أدخل همزة الاستفهام التى تحمل الجزء الأهم من معنى البيت ، وهو عتاب النفس ولومها على توجعها من المنون ، وكان يجدر بها أن تتلقى هذه النكبات ، كما تتلقى الأشياء المألوفة . وسوف ترى أن هذا المعنى ليس أساس البيت فقط ، وإنما جرى فى القصيدة كلها حتى كأنه أشيع نغمة بين أنغامها ، وأدور معنى فى أجزائها . وكأن القصيدة كلها حاشية عليه . =

٢ — قالت أميمة مالجسمك شاحباً
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

= هذه الهمزة أدخلها الشاعر على متعلق التوجع ولم يدخلها على الفعل نفسه ، فلم يقل أتتوجع من المنون وريبها ، لأن هذا معنى لايقصد إليه ، إذ أن محط الانكار ومصبه ليس هو التوجع ، فللمرء أن يتوجع من الأشياء والنكبات التى تكون بفعله أو بفعل غيره من الناس ، ولكن لايليق به إذا كان ذا حكمة ووعى بالحياة والأحياء أن يتوجع من المنون وريبها .

وهم يقولون إن المقصود بمعنى الهمزة هو مايليها ، وهذا أصل عظيم من أصول الصياغة يبين لنا أن الشاعر لايقصد إنكار التوجع ، وإنما يقصد إنكار أن يكون من المنون وريبها .

قلت إن هذه النغمة الأولى التى أطلقها (أبو ذؤيب) والتى هى محاولة منه جادة ، لأن يكظم توجعه ، فلا تعلو له صرخة ، والتى هى مغالبة لموجة الحزن التى تطغى على نفسه فتقهرها .

هذه النغمة شاعت فى القصيدة كلها ، وتراها تظهر كلما اشتدت على الرجل وطأة الحزن ، وانظر كيف تسلسلت المعانى بعد هذا البيت البارع(١).

٢ — (أميمة) اسم امرأة ، و (الشحوب) مصدر شحب يشحب ، بمعنى تغير وهزل (ابتذلت) بالبناء للفاعل ، أى منذ وليت العمل وامتهنت نفسك ، وبالبناء للمفعول أى منذ ابتذلك الزمن وأهانك .

(١) انظر قراءة فى الأدب القديم د ـ محمد أبو موسى ١٤٥ ، ١٤٦

٣ — أم مالجنبك لايلائم مضجعاً
إلا أقض عليك ذاك المضجع

٤ — فأجبتها أما لجسمي إنه أودى بنى من البلاد فودعوا

٥ — اودى بنى واعقبونى حسرة
بعـــد الرقاد وعبرة ماتقلع

— المعنى : تقول له صاحبته أميمة ، وقد رأت شحوب جسمه ، وتغير حاله ، ماسبب هذا الشحوب ؟ وماعلة ذلك السقم ؟ ثم أخذت تلومه ، وتدفعه إلى العناية بنفسه وتطلب إليه أن يستأجر بماله من يقوم عنه بأعماله.

٣ — لايلائم : لايوافق ، و (إلا أقض عليك) أى صار تحت جنبك - على مضجعك - مثل قضض الحجارة ، وهى حجارة صغار ، وتسمى القضه ، والمراد (لم يرح) والمضجع : مكان النوم .

والمعنى : مالك لاتستريح ، ولاينعم جسمك برقاد ، ولا يستلين مضجعاً .

٤ — (أما) أصلها (أن ما) وماموصولة : أى أن الذى لجسمي ، أودى : هلك ، و (ودعوا) أى ماتوا ، وقوله (من البلاد) أى من أهل البلاد .

والمعنى : أجبتها أن سبب شحوب جسمي هلاك ابنائى ، وكفى به سبباً.

٥ — (اعقبونى) اورثونى ، و (الرقاد) النوم ، (العبرة) الدمعة ، تقلع : تكف (ولاتقلع) لاتكف ولاتزول .

والمعنى . إن اولادى ماتوا ، فخلفوا لى حسرة والما ، وبكاء دائما .

٦ - سبقوا هوى واعنقوا لهواهم   فتخرموا ولكل جنب مصرع

٧ - فغبرت بعدهم بعيش ناصب   واخال انى لاحق مستتبع

تجـــلد

٨ - ولقد حرصت بأن ادافع عنهم   فإذا المنية اقبلت لاتدفع

---

٦ - هوى . اصله : هواى ، مضافا إلى ياء المتكلم ، وهذيل - والشاعر منها - تقلب الف المقصور ياء ، وتدغمها فى ياء المتكلم ، وغيرهم يقول : هواى (اعنقوا) اسرعوا ، (تخرموا) بالبناء للمجهول : ماتوا واحداً بعد الآخر ، و (المصرع) الموت والهلاك ، او مكان الموت والهلاك .

والمعنى : إن بنى سبقوه إلى الغاية التى يصل إليها كل إنسان وهى الموت والفناء ، فاستأصلتهم المنية ، ولكل حى مصرع ونهاية ينتهى إليها .

٧ - غبرت : بقيت ، ناصب : ذو نصب وتعب ، اخال . اظن ، وقد حمله بعضهم على اليقين ، والأجود تركه فى بابه ، لأن ابا ذؤيب لغلبة اليأس عليه ، قدر ذلك تقديراً ، ولم يتيقنه ، ويكون الكلام اوله تألم وآخره إظهار يأس .

وقوله (بعيش ناصب) فى موضع الحال ، ومستتبع بفتح الباء بمعنى لاحق .

والمعنى : لقد مضوا ، وبقيت اعانى الشدة والألم ، وسألحق آخر الأمر بهم ذاهب إلى حيث ذهبوا .

٨ - حرص : بفتح الراء : والحرص الرغبة الشديدة فى بقاء الشىء ، ومعنى (اقبلت) إذا اقبلت ، اى فقد وجدت بأن المنية إذا اقبلت (لاتدفع) لاترد .

٩ — وإذا المنيـــــة أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمـــــة لاتنفع

١٠ — فالعين بعدهـا كأن حـــــداقها
سملت بشوك فهـــى عور تدمع

= والمعنى : لقد التزمت فى حرص وعزم بأن أدافع عنهم المنايا ، وأذود عن مكانهم الشرور ، ولـكن المنية إذا نزلت بساحة قوم فإن دفاعها لايجدى .

(٩) أنشبت : أدخلت ، الأظفار : جمع : ظفر ، ألفيت : وجدت ، والتميمة : خرزه تنظم فى سير ، ثم يعقد فى العنق .

وفى البيت استعاره مكنيه حيث شبه المنية بالسبع بجامع اغتيال النفوس فى كل ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الأظفار ، واثبات الأظفار للمنيه استعارة تخييلية .

والمعنى : إذا أدخل الموت مخالبه فى شىء ليجتذبه ، ويذهب به بطلت عنده الحيل ، وصار الغالب له .

(١٠) العين : هنا للجنس ، والمقصود ، عيون الباكين عليهم ، وقيل : المراد بالعين : العينان ، وبالحداق : الحدقتان ، والحداق : جمع حدقه ، والمراد جوانبها المختلفة ، أو الحدقة وماحولها ، والحدقة فى الأصل : السواد المستدير وسط العين ، سملت : فقئت . و « عور » جمع عوراء ، وهى التى ذهب حسها ونورها ، والضمير « هى » يعود إلى لفظ الحداق .

والمعنى : إن عينه لا تزال تفيض دموعها ، كأنها فقئت بشوك ، فالدمع منها لاينقطع .

١١ — حتى كأنى للحوادث مروة
بصفا المشرق كل يوم تقرع

١٢ — وتجلدى للشامتين أريهم
أنى لريب الدهر لا أتضعضع

---

(١١) المروه : مفرد المرو، وهى حجارة بيض صلبة براقة ، تنقدح منها النار ، والصفا . جمع صفاة : الحجر العريض الأملس .

قال الأصمعى : والمشرق : المصلى ، ومسجد الخيف هو المشرق :

وقال أبو عبيده : المشرق سوق الطائف .

ويروى « بصفا المشقر » والمشقر : حصن بهجر فى البحرين، وكل يوم: كل حين وتقرع : من قولهم : قرع الباب دقه وبابه منع .

والمعنى : لقد توالت حولى النكبات ، حتى أصبحت كالحجرة الملساء التى ترمى بالحجارة فى كل وقت .

(١٢) التجلد : تكلف الجلد ، وهو الشده والقوة والصبر، الشامت الذى يفرح بمصيبة غيره ، وريب الدهر: أحداثه وصروفه ، أتضعضع : أخضع: وأذل ، والضعضاع الضعيف من كل شيء ، والرجل بلا رأى وحزم .

وموضع أريهم . نصب على الحال .

والمعنى : الشاعر : يتكلف الجلد والقوة ، ويظهر الشجاعة خوف شماتة الشامتين ، حتى يريهم أنه لم يضعف ، ولم يخضع لصروف الزمان .

وقد شبه نفسه بالحجارة القوية الصلبة تقرع كل يوم ، فلا ينال منها القرع منالا .

١٣ — والنفس راغبـــة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنـــع

١٤ — ولئن بهم فجع الزمان وريبه
إنى بأهـــل مـودتى لمفجـع

= ويروى أن ابن عباس رضى الله عنه ، أراد أن يعود معاوية فى مرضه الأخير فأمر معاوية أن يقعد ويسند ، ثم دخل ابن عباس فسلم وانصرف وسمع معاوية ينشد :

وتجلـدى للشامتين أريهـم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فأجابه على الفور :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فـا خرج من الدار حتى سمع الناعية عليه(١) .

(١٣) المراد بالنفس هنا : الشهوة والغريزه ، راغبة : مقبلة ومحبة إذا رغبتها : أى سهلت لهـا الأسباب ، و « ترد » أى عن غيها ، وتحكم شهوتها و « تقنع » أى تكتفى بالقليل .

والمعنى : إن رغبة النفس فى الأمور بحسب بسطك لهـا ، وتسويفك إياها فإذا كففتها دون ما تشتهيه قنعت .

(١٤) فجع : أصاب ورزأ وأوجع ، ريب الزمان : أحداثه وكوارثه ، مفجع : مصاب،المودة : المحبة ، وقوله « إنى بأهل موتى » جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف. —

(١) من الأدب القديم د . حسن جاد ٨٧ .

١٥ — كم من جميع الشمل ملتئم القوى
كانــوا بعيش قبلنـا فتصدعوا

١٦ — والدهـر لا يبقى عـلى حدثانه
جون السراة له جــدائد أربع

— والمعنى : إذا كنت رزئت فى أولادى الخمسة بمصر ، فقد عودنى الزمان أن يفجعنى دائما فى أحبائى . فما حدث اليوم ليس بعجيب كما أنه ليس بغريب على .

(١٥) جميع : بمعنى « مجموع » ، و « بعيش » أى فى عيش ، والتنكير فى عيش للتنويع أى بعيش هانى ، وتصدعوا : تفرقوا.

والمعنى : كثير ممن كانوا مجموعى الشمل يحيون حياة ناعمة رافهة ، تفرق شملهم وتبدد نظامهم بالموت .

هذا وفى قوله : جميعى الشمل ، وتصدعوا طباق حسن .

(١٦) حدثان الدهر : حوادثه ، ونوائبه ، الجون : الأسود والأبيض من أسماء الأضداد والمراد هنا : حمار الوحش الأسود فى احمرار ، وسراة كل شىء أعلاه ، و « الجدائد » جمع « جدود » وهى الأتان السمينة ، أو التى جف لبنها .

والمعنى : الدهر لن يستطيع أحد أن يغالبه ، وأن يبقى سليما من حوادثه مهما بلغت قوته ، حتى حمار الوحش القوى الذى يدافع عن أتنه ببساله ، وهو ضارب فى بطن الصحراء ، حتى هذا يصيبه الدهر فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئا .

وإذا كان الشاعر فى مطلع قصيدته كأنه حاول أن يدفع وطأة الاحساس بما أصابه ، فقد بدأ يحكى أوجاعه ويقص آلامه وأحزانه . —

— « فأميمة تسأله ما لجسمه شاحبا ، وما لجنبه لا يلائم مضجعا ، ويقول لها « أودى بنى فأعقبونى حسرة » . وأنهم سارعوا لهواهم وما أحبوا من الجهاد فتخرمتهم المنية إلى آخر الأبيات التى ترى معانيها تساق هذا المساق القصصى الحزين ، وتجرى فى أسلوب الحوار والتساؤل ، وهذه وسيلة بيانية تبعد بالأسلوب عن النهج التقريرى ، وما فيه من ملل ورتابة .

إن المعانى والمشاعر هنا تجرى متماسكة ومتلاحقة ، لأنها جاءت فى جواب سؤال ، وهاهو الشاعر يسلسها ويقصها كلهـــا ليجيب عن قولها ما لجسمك شاحبا ؟

يروى قصة بنيه الذين سبقوا هواه ، وكان هواه أن يموت قبلهم ، وأنه بقى بعدهم بعيش ناصب ، وأنه قابع ينتظر الموت ، فهو لاحق بهم ، وهناك من يلحقون به والأحياء جميعا تنتظمهم هذه السلسلة المتشابهة نحو العدم ، فكل واحد منهم سابق للموت ومسبوق به .

يحكى لنا الشاعر هذا ، ويحكى قصة صراعه مع الموت ، ومحاولة دفعه عن بنيه ولكن الموت غلبه لأنه قوة إذا أقبلت لا تدفع ، وهكذا يتواثب الشعر ، وتتلاحق ألفاظه فى الأبيات .

وإذا اقتربت من الأبيات خطوة ثانية ، رأيت فيها ألوانا أدق وأروع فسؤال أميمة عن سببين : عن شحوب به مع ماله من مال ، وعن تفزعه ، فصاحبته لم تره يذبل فقط وإنما رأته أيضا مفزعا ، وقد عبرت عن الحالة الثانية بقولها : « ما لجسمك » لا يلائم مضجعا إلا أقض عليه ذاك المضجع » .

والملاءمة تعنى الموافقة ، وأقض عليه المضجع ، أى كان فى المضجع قض وقضيض ، وهو الحصى الصغار — العبارة تعنى أن المضاجع التى تلائم جسمك لا يهدأ فيها ولا يسترخى ، وإنما يكون نابيا عنها مضطربا فيها ، وكأنه ينام على الحصى لاقراره عليه ، هذا التعبير يبرز حال الاضطراب بالوسيلة المجازية المألوفة .

ثم قوله «أودى بنى» — تراه خبرا مرسلا لاتشنج فيه ولاتهويل ، ولكنه يطوى وراءه حسا متقدا بالوجع . [العبارة فى ظاهرها هادئة ولكنها تركز مأساة مذهلة وترى الشاعر يكرر هذه الجملة «أودى بنى» . . وتجد أنفاسه تعلو وتتصاعد مع تكرارها ويشتد وجده بها وتنهمر دموعه ، وماتكاد تعلو هــــذه النغمة حتى يلجأ الشاعر بسرعة إلى مايحبس نغمتها ويخفف حدتها ، فيذكر طبيعة الحياة والأحياء ، فلكل جنب مصرع ، وهو لاحق مستتبع ، والمنية لاتدفع ، وإذا أنشبت أظفارها فكل تميمة لاتنفع .

والنفس راغبة إذا رغبتهــــا
وإذا ترد إلى قليــــل تقنع

وكم من جميع الشمل ملتئم الهوى
كانوا بعيش قبلنا فتصدعوا

هذه المعانى التى يحاول بها الشاعر أن يبعث فى نفسه شيئا من القرار ، وأن يتكىء عليها فتتماسك نفسه ، وينتظم كيانه تراها مبثوثة بين دوامات من القلق الطاحن ، والحزن المستفز ، ونستطيع أن نتبين هذا بالنظر فى الأبيات .

انظر إلى الإحساس بالشكل والتفرد والضياع فى قوله «فغبرت بعدهم بعيش ناصب» ثم انظر إلى حنو الأبوة ، وفرط حدبها على بنيها وحرصها عليهم ، وقلقها بهم فى قوله «ولقد حرصت بأن أدافع عنهم» .

ثم انظر إلى طغيان الحزن والوجع والبكاء فى صورة هذا الشيخ الجليل المنتحب ، فهاهى دموعه دائمة الهملان ، وكأن أحداقها «سملت بشوك فهى عور تدمع» . وهكذا نرى هذه القبسات الحكيمة كأنها الدواء يفرغها هذا الشاعر العاكف على نفسه ، وأوجاعه كلما أحس بطغيان هــــذه

الأوجاع وأنها تكاد تخرجه ، عن جلال حزنه ، ووقار ألمه(١) .

إن هذه القصيدة بحق من عيون الشعر العربى ، وبها تقدم أبو ذؤيب جميع شعراء هذيل .

وقد كانت من قديم سلوة المحزون ، وبلسم المجروح فى عزيز عليه وكان الناس يحرصون على حفظها وروايتها .

فقد روى أنه لما مات جعفر بن أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى طلب الخليفة من حاجبه أن يحضر له من أسرته من ينشده قصيدة أبى ذؤيب حتى يتسلى عن مصيبته ، فخرج الحاجب إلى بنى هاشم ، وهم بأجمعهم حضور فلم يجد فيهم أحدا يحفظها ، فرجع وأخبر المنصور ، فقال : والله لمصيبتى بأهل بيتى ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذه القصيدة لقلة رغبتهم فى الأدب أعظم وأشد على من مصيبتى بابنى .

ثم إن الحاجب أحضر له شيخا مؤدبا ، فأنشده إياها ، فلما قال « والدهر ليس بمعتب من يجزع » قال المنصور : صدق والله ، فأنشدنى هذا البيت مائة مرة ، فأنشده ، ثم مضى فيها ، فلما انتهى إلى قوله : « والدهر لا يبقى على حدثانه » قال المنصور : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول .

وفى القصيدة أبيات من روائع الحكم والأمثال، منها هذا البيت « والنفس راغبة إذا رغبتها . . الخ » وقد قال بعض الرواة : إنه أبرع بيت قالته العرب ، وقد أخذ معناه الإمام البوصيرى ، فقال فى البردة :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

---

(١) انظر قراءة فى الأدب القديم د/ محمد أبو موسى ١٤٧ — ١٤٩

ومنها قوله « وتجلدى للشامتين . . » وقد قالوا إنه أحسن ماقيل فى الصبر .

والبيت « وإذا المنية أنشبت أظفارها . . » مشهور فى كتب البلاغة وهو شاهد على الاستعارة المكنية ، وقد أجاد الشاعر فى تجسيم صورة الموت فقد شبهه بسبع ضـــار ، ينشب أظفاره فى فريسته ، وهى صورة بشعة وفى الوقت ذاته توحى بأن الروح ذاهبة لامحالة ، فليس حينئذ منجى ، ولامهرب من الموت .

واستعارة « التصدع » فى قوله « كانوا بعيش ناعم فتصدعوا » . رائعة قوية ، وقد جسمت معنى التفرق ، وأبرزته ، كما دلت على أن اجتماع هؤلاء القوم كان قوياً ، حتى كأن كل واحد منهم كان ملتصقا بأخيه .

وتصوير موت بنيه واحداً بعد واحد بأنه مسارعة إلى هواهم ، فيه من الدلالة على سرعة ذهابهم وتتابعهم مايبعث فى النفس الدهشة والذهول والترقب وأخيراً يبعث الأسى واللوعة والوجوم .

وفى القصيدة بعض التشبيهات الحسية ، فقد قال إن عينه لكثرة دموعها كأنها سملت بشوك ، وشبه نفسه بالمروة التى لايزال الناس يقرعونها ليستخرجوا النار منها .

وأيضا فى هذه القصيدة تصرف الشاعر ، فبكى والتاع ، ثم سلا وصبر ، وقد ذكر أولا سبب بكائه ولوعته ، وذكر ثانيا سبب ســلوته وصبره .

وهذه القصيدة من الشعر المعدود فى رثاء الأبناء ، بل فى الرثاء بعامة والعاطفة الحزينة شائعة فيها ، وأكثر الشعر تأثيراً فى النفوس هو شعر الرثاء لاسيما الذى يعبر عن عاطفة صادقة .

وقد قيل لأعرابي : ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ فقال : لأنا نقول وأكبادنا تحترق(١) .

---

(١) انظر التاريخ الأدبي للعصرين الجاهلي والإسلامي الأول د/علي العماري ١٧٠ — ١٧٢

ومختارات من روائع الأدب د/ عبد السلام سرحان ١٧٦ — ١٧٩

وشرح المفضليات للتبريزي ج ٣ ، ١٣٩٧ — ١٤٠٩

ومن الأدب العربي القديم د/ حسن جاد ٨٣ — ٨٨

وقراءة في الأدب القديم د/ محمد أبو موسى ١٤٥ — ١٧٠

النثر الجاهلى

خطبة هاشم بن عبد مناف فى قريش وخزاعه

تقديم :

وقع خلاف بين قريش وخزاعة ، وتفاقم حتى كادت الحرب تشتعل بين الفريقين ، على الرغم أنهما ينتميان إلى أصل واحد ـ فأسرع ذوو الرأى والحكمة إلى هاشم بن عبد مناف ، ودعوه إلى الإصلاح بينهما ، لماله من منزلة رفيعة ، ومكانة سامية بينهم ، فخطب فيهم هذه الخطبة البليغة التى انتزع بها ما كان فى صدورهم من غل وكراهية .

أيها الناس : نحن آل(١) إبراهيم ، وذرية اسماعيل وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصى بن كلاب ، وأرباب مكة(٢) ، وسكان الحرم لنا ذروة الحسب(٣) ومعدن الجد(٤) . ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته(٥) وإجابة

---

(١) آل الرجل : أهله ، وأصله « أهل » أبدلت الهاء همزة ، فصارت « أأل » فتوالت همزتان ، فأبدلت الثانية ألفا .

(٢) رب كل شىء : مالكه ومستحقه أو صاحبه ، والجمع أرباب ، والمراد سادتها وحكامها وذوو الشأن فيها .

(٣) ذروة الشىء : بضم الأول وكسره : أعلاه ، والحسب : الشرف .

(٤) المعدن : منبت الجواهر ، وأصل كل شىء .

(٥) الحلف : العهد ، وجمعه أحلاف ، والنصرة بضم النون : حسن المعـــونة .

دعوته . إلا مادعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم (١) .

يابنى قصى : أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه (٢) . والسيف لايصان إلا بغمده (٣) ، ورامى العشيرة يصيبه سهمة (٤) ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغى (٥) .

أيها الناس : الحلم شرف ، والصبر ظفر (٦) والمعروف كنز ، والجود سؤدد (٧) والجهل سفه (٨) والأيام دول ، والدهر غير (٩) والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله .

---

(١) العقوق : إنكار الفضل والجحود ، والمراد بعقوق العشيرة : جر الشر على العشيرة .

(٢) أوحش : آلمه وأتعبه ، وجعله فى وحشه ، وأوحش صاحبه : شعر له بالوحشه والانفراد .

(٣) بغمده : الباء بمعنى فى ، والغمد : مايوضع السيف فيه . أى جرابه

(٤) يصيبه سهمه : أى يرمى نفسه .

(٥) محك يمحك محكا : لج فى المنازعة ، وتمادى فى اللجاجة عند المساومة واللجاج ، الخصومة ، وأمحكه : دفعه وغلبه ، والبغى : مجاوزة الحد .

انظر . مختارات مع روائع الأدب ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٦) الظفر : النصر .

(٧) الكنز : المال المدفون ، والسؤدد : السيادة والشرف :

(٨) الجهل سفه : المراد بالجهل : العدوان ، والسفه : سوء التصرف

(٩) الدول : جمع دولة وهى انقلاب الزمان وإساءته ، والغير جمع غيره كعنب وعنبة ، أحداث الدهر ومصائبه .

فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد «١» ، ودعوا الفضـــول تجانبكم السفهاء «٢» ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم«٣» ، وأنصفوا من أنفسكم«٤» ، يوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية ، فإنها تضع الشرف «٥» ، وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته «٦» ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ومقام الحليم عظة لمن انتفع به ، فقالوا رضينا بك - أبا نضلة - وكانت كنيته«٧» وتصالحا .

أراد هاشم بن عبد مناف أن يصلح بين الخصوم ، وأن يقطع دابر الخلاف فذكر القبيلتين - فى خطبته الرصينة - بما بينهما من وشائج القربى التى تدعو إلى الحب والتعاطف ، والتساند ، ونبذ الخلاف والنزاع والشقاق وبين أن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل :

---

(١) اصطنعوا المعروف : اجعلوه صنيعه :

(٢) الفضول : الذى لايعنى الإنسان ، وتجانبكم : تبتعد عنكم ، والسفهاء جمع سفيه ، وهو بذىء اللسان :

(٣) ناديكم : مكان اجتماعكم ، والخليط المخالط المعاشر ، حاموه : امنعوه أن يعتدى أحد عليه ، الجوار : المجاوره .

(٤) أنصفوا من أنفسكم : كونوا عادلين ، ولو على أنفسكم

(٥) الدنية : الساقطه ، وتضع الشرف : تحط من قدره الشرف والمجد

(٦) النهنهة : الكف والزجر والمنع ونهنهة الجاهل وجزه وابعاده والأخذ على يده : والجريره : الذنب والجنايه : يريد «الوقايه خير من العلاج» :

(٧) مابدىء بأب أو أم . نحو أبو الحسن، وأم الخير :

وقد أثمرت الخطبة ثمارها المرجوة ، صلحا ووفاقا وحبا سلاما هذا وفى النص صور بلاغية رائعة .

ففى قوله « ذروة الحسب والنسب » استعارة مكينه حيث شبه الحسب والنسب بجبل عال له قة شاهقة ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو « الذروه » .

وفى قوله « أنتم كغصنى شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه » تشبيه تمثيل ، شبه حال كل من القبيلتين فى احتياج كل منهما الى الأخرى ، وعدم الاستغناء عنها بحال غصنى الشجرة اللذين إذا قطع أحدهما أضر بالآخر .

وفى قوله « رامى العشيرة يصيبه سهمه » كنايه عن الحاق الضرر بالانسان الذى يشعل نار العداوة بين أبناء قبيلته

وفى قوله « الحلم شرف ، والجود سؤدد ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز » تشبيهات بليغه ، حذف فيها وجه الشبه والأداة .

وفى قوله « الأيام دول » كنايه عن تقلب الأمور وعدم استقرارها على حال .

وفى قوله « تهدم المجد » استعاره مكنيه حيث شبه المجد ببناء ، ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو « تهدم » .

وفى قوله « يحمل أثقالها » كنايه عن تحمل المسئولية .

وصية أمامة بنت الحارث

لابنتها « أم إياس »

لما هيئت « أم اياس » بنت عوف بن علم الشيباني إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة . قالت لها أمها أمامة بنت الحارث :

أي بنية . . إن الوصية لو تركت لفضل أدب . . تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل . . ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ، كنت أغنى الناس عنه . ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

أي بنية . . إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلفت العش الذي فيه درجت(١) . إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه(٢) .

فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا . . فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا(٣) .

يابنية . . احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا . الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة . والتعهد لموضع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم(٤) منك إلا أطيب ريح .

---

(١) المراد بالجو : البيئة التي تربت فيها ، ودرجت مشيت .

(٢) الوكر : عش الطائر ، وإن لم يكن فيه ، والقرين : المقارن : تعني الزوج ، تألفيه تنسجمي معه .

(٣) الأمة : المملوكة ، ووشيكا : سريعا ، أي مسرعا في الاجابة لك .

(٤) شم : يشم بفتح الشين : من باب فرح ، وبضمها من باب نصر والشم حس الأنف .

والكحل أحسن الحسن . . والماء أطيب الطيب المفقود(١) ، والتعهد لوقت طعامه . . والهدو عند منامه . . فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة . . والاحتفاظ ببيته وماله ، والارعاء على نفسه وحشمه وعياله(٢) .

فإن الاحتفاظ بالمال : حسن التقدير ، والارعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير . . ولا تفشى له سرا(٣) ولا تعصى له أمرا ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أو غرت صدره(٤) .

ثم اتقى ذلك الفرح إن كان ترحا(٥) ، والاكتئاب عنده إن كان فرحا . فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير . وكونى أشد ما تكونين له اعظاما . يكن أشد ما يكون لك اكراما ، وأشد ما تكونين له موافقه . يكن أطول ما تكونين له مرافقه . واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت .

هذا . وفى هذه الوصية الجامعة المانعة صورا بيانيه جميلة ففى قولها : « فارقت الجو الذى منه خرجت ، كناية عن تركها البيئة التى تربت فيها ، وانتقالها إلى بيت الزوجية .

---

(١) الطيب : المادة ذات الرائحة الذكيه ، والمفقود : أى الذى لا يستعمل مع أنه أحسن الجميع وأذكاها .

(٢) الارعاء : الحفاظ ، نفسه : ذاته ، وحشمه : خاصته الذين يغضبون له من أهل وعبيد .

(٣) لا تفشى : لا تذيعى ، السر ما يجب كتمانه .

(٤) أو غره : أغراه بالحقد ، والوغر : الحقد والعداوة .

(٥) الترح بالتحريك الحزن ، والترح بفتح التاء المهموم الحزين انظر مختارات من روائع الأدب ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

وفى قولها «كونى له أمة» تشبيه بليغ حيث شبهتها بالأمة فى الطاعة وأيضا فى قولها : «يكن لك عبدا» تشبيه بليغ حيث شبهته بالعبد فى سرعة الاجابة والرعاية .

وفى قولها الصحبة بالقناعة كنـــاية عن الرضا بالقليل ، وفى قولها : والمعاشرة بحسن السمع والطاعة كناية عن الاستجابة لأمره ونهيه .

وفى قولها : فلا تقع عينه منك على قبيح كناية عن التزامها بجمال المظهر ، واجتنابها لكل ما يشين .

وفى قولها : ولا يشم منك إلا أطيب ريح كناية عن الحفاظ على رائحتها الطيبة .

وفى قولها الكحل أحسن الحسن كناية عن التزين ،
وفى قولها والاحتفاظ ببيته وماله كناية عن الأمانة .
وفى قولها رضاه على رضاك كناية عن الايثار .
وفى أحببت وكرهت طباق حسن .

صدر الاسلام

جاء الاسلام ، فكان له عظيم الأثر في حياة العرب الاجتماعية ، والخلقية والسياسية فقد هذب عاداتهم ، وصفى أخلاقهم ، ونظم معيشتهم ، وجعل منهم أمة واحدة ، تحيا حياة طيبة وتسعى لغايات مشتركة ، بعد أن كانت قبائل متفرقة متعادية متطاحنة .

وكذلك نهض الاسلام بحياتهم العقلية ، وخطا بهم خطوات فسيحة فى طرق الحكم والقيادة المنظمة ، وسائر وسائل المعيشة ، فأصبحوا بنعمة الله اخوانا ، وأصبحت مثلهم العليا هى المثل العليا للاسلام ، وهى الخضوع لله ، والتقوى والاخاء والمساواة ، لا الانتقام والعصبية وحمية الجاهلية ، وصار القرآن الكريم رائدهم وهاديهم إلى سواء السبيل ، فاستلت الضغائن والأحقاد من القلوب ، وصفت النفوس ، واتجهت بإخلاص ويقين راسخ إلى اعلاء كلمة الله ، وإلى نصيرة دينه القويم ، واتباع هدى نبيه الكريم .

كان لكل ذلك أقوى الأثر فى اختفاء تلك العصبية التى كانت تقطع صلاتهم وتفكك أواصرهم ، وتثير أضغانهم ، وتذكى نيران الحروب بينهم لأوهى الأسباب .

وقد امتزجت الخلال العربية الصافية القوية بالروح الاسلامى السامى الكريم ، فأصبحت الأمة العربية الاسلامية قوية النفس عزيزة الجانب عالية الكلمة .

وكان لكل هذا أثر فى أدب العرب ، فإن الأدب هو ثمرة العقول ، وصورة النفوس ، فقد ترك الشعراء الهجر من القول ، والفخر بالباطل ، والمدح بالاغارة والعدوان على من ناوأهم ، أو فاخرهم .

واتجه الشعراء إلى استخدام شعرهم فى تأييد الدعوة الإسلامية والدفاع عن صاحب هذاه الدعوة محمد ﷺ كما فعل حسان بن ثابت وغيره .

ولقد كان القرآن الكريم ومدارسته ، وتفهم أساليبه ، وللأحاديث النبوية وبلاغتها وقوة بيانها ، وغزارة معانيها أثر فى شعرهم ، وفى تجافى لغته عن الحوش والغريب .

وقد جرت ألسنتهم ببعض ألفاظه وعباراته ، وتأثرت معانى الشعر بما تضمن القرآن الكريم من حكمة وموعظة حسنه ، وأدب رفيع وخلق عظيم .

وكان الشعر فى صدر الاسلام صورة من مظاهر الحياتين الجاهلية والإسلامية .

وقد فهم بعض المتأخرين أن الاسلام بغض الشعر ونفر منه ، حتى إن بعضهم لم يكن ينشد بيتا من الشعر خوفا من أن يجىء هذا البيت فى كتابه ، يوم القيامة لكن ذلك مبالغة واسراف وغفلة .

فقد استمع النبى عليه الصلاة والسلام للشعر وأجاز عليه ، بل وحث شعراءه على أن يدفعوا عن الاسلام بشعرهم ، فالاسلام لم ينفر من الشعر ، وإنما نفر من الباطل الذى يكون فى بعض الشعر ، ولذلك جاء الاستثناء فى الآية التى نعى فيها القران على الشعراء والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون .

وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا(١) .

فالشعر كل كلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح أما شعراء المشركين ، والذين لم يتغلغل الاسلام فى نفوسهم فضوا فى طريقهم لا يتقيدون بقيد، وأما شعراء المسلمين . فقد قالوا الشعر أولا انتصارا لأنفسهم ولدينهم ، ثم قالوه ثانيا على حدود ما سنه القرآن الكريم لهم ، فتركوا الهجر والفحش، وعفوا عن الظلم والباطل(٢) .

---

(١) الشعراء الآيات ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٢) انظر التاريخ الأدبى ٨٥ ، ٨٦ ، والأدب والنصوص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

حسان بن ثابت

التعريف با شاعر :

هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الأنصارى الخزرجى النجارى ، أشهر الشعراء المخضرمين ، وصاحب المواقف الخالدة فى الدفاع عن الإسلام ورسوله الكريم .

كان قومه بنو النجار أخوال الرسول ﷺ ، لأن أم عبد المطلب : «جد رسول الله ﷺ» : منهم ومن ثم فقد كان لحسان بالرسول الأكرم صلات رحم وقرابة .

وبنو النجار يرجعون فى نسبهم إلى الخزرج ، تلك القبيلة العظيمة ، التى عرفها التاريخ ، ورددت مفاخرها الأيام ، وهى وأختها الأوس من الأزد القحطانيين ، وكان بينهما عداء شديد قبل الإسلام . كما كان بينهما وبين يهود سكان المدينة القدامى خصومات وحروب .

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأسلمت القبيلتان ألف الإسلام بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ،

وكان قيس بن الخطيم فى الجاهلية شاعر الأوس : «وحسان شاعر الخزرج . تلك هى قبيلة حسان ومفاخرها العربية التليدة .

ولقد كان جده المنذر الحكم بين الأوس والخزرج يوم سميحة ، وهو أحد أيامهم المشهورة .

ووالده ثابت بن المنذر ، من سادة قومه وأشرافهم ، أما أمه فهى الفريعة ابنة خالد بن قيس الخزرجى ، وقد أدركت الإسلام فأسلمت ؛

حيـــاة حسان :

في هذا النسب العربي الكريم ، وذلك الحسب العبقري الماجد ولد حسان في المدينة ، قبل الهجرة بنحو ستين عاما ، وشب على البلاغة والشعر ، وشهد مواطن قومه وأيامهم ومفاخرهم ، واشترك من قبيلته في مفاخراتهم ، ومنافراتهم ، وخصوماتهم ، وحروبهم .

كان حسان في أول شبابه يناضل قيس بن الخطيم شاعر الأوس ويفاخره ، ويشترك معه في منافرات أدبية طويلة ، فطارت شهرته في الجزيرة العربية ، وذاعت شاعريته ، وحصفت ملكاته ، ومواهبه في البلاغه .

حسان في ظل الغساسنة :

وكان حسان يقصد بمدائحه بني غسان عاما ، ويقعد عنهم عاما ويقعد عنهم عاما آخر ، وكان يأخذ منهم الأموال الطائلة ، والجوائز السنية ؛ وطال تردده عليهم ، يمدح أمراءهم ؛ وينشر مآثرهم ، ويصف حروبهم ويشيد بسلطانهم الواسع العريض .

وممن مدحهم حسان من الأمراء الغسانيين عمرو بن الحارث ، وأخوه النعمان ، وحجر بن النعمان :

ويروى أن حسان وفد على عمرو بن الحارث ، فوجد عنده النابغة ، وعلقمة بن عبده ، فوقف حسان وأنشد قصيدته التي منها قوله :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

شم الأنوف من الطراز الأول

ولما انتهى حسان من إنشاد قصيدته زحف عمرو بن الحارث ، عن موضعه سرورا وهو يقول : هذا وأبيك الشعر ، لا ما يعللاني به منذ اليوم ، أحسنت يا بن الفريعة ، هذه والله البتارة التي قد بترت المدائح ، ومنحه ألف دينار ، مكافأة له على مدحته المحبرة ، على أن يكون له في كل سنة مثلها .

وتروى هذه القصة له مع جبلة بن الأيهم الغساني آخر ملوكهم ، وكان جبلة يقسم ألا يطيف به ذكر حسان إلا بعث إليه بجائزته ، ولا يمر به غاد أو رائح إلا أرسل معه ما يطرف به حسانا .

حسان في ظلال النعمان :

ووفد حسان على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، ومدحه بغرر قصائده ، فأمر له بجوائز سنية ، وكان ينادمه ويصيب منه مالا كثيرا :

كما كان يحضر مجالسه مع الشعراء ، وخاصة مع النابغة شاعر النعمان الأثير لديه .

وهكذا كان حسان في الجاهلية يفد على ملوك الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة ، وينال وفدهم وجوائزهم ، ويفاخر شعراءهم من أمثال النابغة وعلقمة ، وظل كذلك حتى ظهر نور الإسلام ، وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة .

حسان فى ظلال الإسلام :

ولما هاجر الرسول ﷺ : إلى المدينة أسلم حسان واطمأن قلبه إلى الإيمان ، وتحمس لعقيدته ، فوقف يدافع عنها ، ويذود عن الرسول الأكرم بلسانه وشعره ، فقربه صلى الله عليه وسلم : إليه وآثره الحظوة والعطف .

كان ثلاثة رهط من قريش — وهم عبد الله بن الزبعرى . وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص — قبل إسلامهم يهجون رسول الله والأنصار ، فاستنصر رسول الله الأنصار ، وندبهم الرد عليهم فأجابه ثلاثة من الأنصار ، هم : كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وأشعرهم حسان :

يروى أن رسول الله ﷺ : لما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه : ما يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟

فقال حسان : أنا لها ، وقال : والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء والله لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه ، فقال له النبى : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟

قال : أسلك منهم ، كما تسل الشعرة من العجين : فقال : اهجهم وروح القدس معك ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام ، ثم قال ﷺ : أيت أبا بكر فهو أعلم بالقوم فأطلعه أبو بكر على مخازيهم ، فهجاهم حسان أوجع هجاء ، ولم يمس رسول الله من هجائه لهم شىء .

وهكذا عاش حسان فى حياة الرسول ﷺ : يدافع عنه ، ويناضل

المشركين . ويرد على شعرائهم ، ويهجو خصوم رسول الله . ويرفع من شأن الإسلام ورسوله ودعوته ، وكان الرسول عليه السلام يؤثره ويقربه إليه ، ويقسم له من الغنائم . ويبعث إليه الهدايا الجزيلة ، وقد وهب له « سيرين » أخت « مارية » القبطية أم سيدنا إبراهيم بن رسول الله ﷺ :

وكان المقوقس ، قد بعث بهما للرسول عليه الصلاة أو السلام . مع هدايا أخرى :

وعاش حسان مبجلاً عند الصحابة ، وخلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : حتى وهن بصره ، واعتلت صحته : وتوفى فى عهد معاوية عام سنة ٥٤ هـ عن عشرين ومائة سنة ، قضى نصفها فى الجاهلية ، ونصفها فى الاسلام :

شخصيته وأخلاقه :

كان حسان ذا ذوق مرهف ، وشعور حى ، كسب من الحضر حب الهدوء والدعة والأمن .

وقد روى أنه لم يشهد مع رسول الله ﷺ : مشهدا ولا غزوة : يقول الرواة إنه كان يصف فى شعره شجاعته وبطولته ، ومع ذلك فقد كان شديد الخوف .

حدث عبد الله بن الزبير عنه قال : كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان يوم الخندق ، وكان حسان مع النساء والأطفال فى الحصن ، فر يهودى فجعل يطوف بالحصن فخشيت صفية أن يعرف اليهودى موضعهم فيدل عليهم اليهود والمسلمون مشغولون عمن فى الحصن بحيث يغيثونهم لو استغاثوا بهم ، فقالت صفية لحسان : انزل فاقتل اليهودى :

فقال لها : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ما أنا بصاحب هذا ، فنزلت هي فقتلته ، ورجعت إلى الحصن ، ثم قالت إيا حسان أنزل فاسلبه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل ، قال : مالى إلى سلبه حاجة .

وقد يعلل هذا الخوف الشديد بعيشة حسان الحضرية المترفة :

ويروى أنه كان في الجاهلية بطلا شجاعا ، وأنه أدركه مرض أعصابه فأصبح لا يرجى لقتال .

وكان حسان فوق ذلك متحمسا لعقيدته ودينه ، شديد الغيرة على الاسلام ومستقبله ، حتى صح أن يلقب شاعر الرسول في الاسلام ،

هذا وقد أخذ على حسان اشتراكه في حديث الأفك الذى رميت به أم المؤمنين عائشه رضى الله عنها .

فقد روى أنه كان خامس خمسة في إذاعة هذا الحديث الكاذب وهم عبد الله بن أبى بن سلول ، وزيد بن رفاعة ، وحسان ، وحمنه بنت جحش ، ومسطح بن أثاثه . وإن كان قد تبرأ بعد ذلك منه ، قال إن مانسب إليه كان من عمل الوشاه وأنه لم يقل شيئا من ذلك لقدم وده وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم وآله .

وذلك حيث يقول في مدح السيدة عائشة رضى الله عنها .

حصان رزان ما تزن بريبـــة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل(١)

حليلة خير الناس دينا ومنصبا ... نبى الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حى من لؤى بن غالب ... كرام المساعى مجدها غير زائل

---

(١) الحصان : العفيفة ، رزان : ذات ثبات ووقار وعفاف ، تزن : تتهم ، غرثى : جائعة الغوافل : جمع غافلة ، أى لا تقع في أعراض الناس.

مهذبة قد طيب الله خيمها
وطهرها من كل شين وباطل(١)
فإن كان قد بلغت أنى قلته
فلا رفعت سوطى إلى أناملى(٢)
فكيف وودى ما حييت ونصرتى
لآل رسول الله زين المحافل
له رتب عال على الناس فضلها تقاصر عنها سورة المتطاول

وقد روى أنه لما أنشدها «حصان رزان» قالت له لست كذلك، تريد أنك وقعت فى الغوافل :

ويمكن الجمع بأن يقال : إن حسانا لم يقل ذلك نصا وتصريحا ، وإنما عرض بذلك وأومأ إليه فنسب إليه(٣) :

شاعرية حسان :

ورث حسان الشعر عن آبائه ، وكان بيته أعرق بيت فى الشاعرية ، وفى ذلك يقول المبرد «وأعرق قوم كانوا فى الشعر آل حسان» .

وقد اجتمع إلى هذه الوراثة الشعرية بيئة الشاعر وملكاته ، وكثرة الخصومات التى اشترك فيها ، وتشجيع أمراء الغساسنة والحيرة له ، وتقديرهم لمدائحه .

وجاء الاسلام فصقل هذه الفطرة الأدبية الشاعرة ، وأمده بقوة الفكرة ، وجلال الهدف ، وسمو المبدأ ، وحرارة العاطفة ،

(١) الخيم : بالكسر : الشيمة والطبيعة والخلق والأصل .
(٢) هذا دعاء على نفسه بألا يستطيع رفع السوط، ويقصد منه تبرئة نفسه
(٣) تفسير القرطبى دار الشعب ٤٥٩٣

وصف شعره :

يمتاز أسلوب حسان فى شعره بقلة التكلف ، وعدم المبالغة فى التجويد والتهذيب والتنقيح . وموقفه أمام الرسول عليه الصلاة والسلام يرد على وفد بنى تميم دليل صدق على ذلك ، وهو فى هذه الناحية يخالف الأعشى والنابغة والحطيئة وزهيرا وسواهم من الشعراء المصنعين ، لأنه كان يرسل الشعر كما تجود به قريحته ، لا يتعمد صنعة ، ولا يقصد أسلوبا بعينه ، ولا يؤثر ألفاظاً بعينها .

وكان شعر حسان فى الجاهلية يمتاز بقوة الأسلوب وجزالته ، وكذلك كان فى الإسلام فى مناقضة المشركين وهجائهم ، وفى الدفاع عن رسول الله ﷺ ، وعن الدين ، يؤكد ذلك ماذهب إليـــه النقاد من أن شعره فى الإسلام كان لا يزال كعهده فى زمن الشباب قويا حصيفا رصينا فى مواضع خاصة : فى هجائه المشركين ، وعند معارضته شعرهم ، وفى فخره وحماسته ويروون أن كثيرا مما وجد فى شعره لينا ضعيفاً لم تكن نسبته له صحيحة .

ومن أجل ذلك كان شعر حسان بعد الهجرة إلى فتح مكة قوياً جزلا ، فصيحا شديد الأسر ، ذاهبا فى سمو البلاغة كما كان شعره فى أيام الجاهلية لاشتعال شاعريته وثورة عاطفته ، والتهاب مشاعره ، ورغبته الصادقة فى الدفاع عن حياض الإسلام ونضال خصوم الدين والرد على الذين يهجون الرسول عليه الصلاة والسلام .

فلما استسلم المشركون ، وألقوا السلاح أمام رسول الله ﷺ ، وسكت صوت المعارضة سكنت شاعرية حسان وهدأت .

أما ألفاظ حسان فهى فى الجاهلية ألفاظ الشعراء الحضريين التى لا تسرف فى الغرابة والحوشية والخشونة ، وقد كثرت فى شعر حسان بعد الإسلام

الألفاظ الإسلامية المحدثة التى وردت فى القرآن الكريم وأحاديث رسول الله كالصلاة والصيام والزكاة والحج والإيمان وغيرها .

أما معانيه فقد كانت قبل الإسلام مطبوعة بطابع الجاهلية ، وصورة لحياتها وتفكيرها وأخلاقها وعاداتها ، وكان فى الإسلام يستمد معانيه من معانى القرآن والحديث ، ويكثر من حكاية حجج المشركين والرد عليهم ، وضرب الأمثال والموعظة والحكمة مع الدقة والعمق وظهور حصافة الفكرة وسلامتها وصحتها وموامتها لروح الدين الجديد ، ولذلك بدا فى شعر حسان تأثير الإسلام والقرآن كقوله :

شهدت بإذن الله أن محمــدا
رسول الذى فوق السموات من عل

وأن الذى عادى اليهـــود ابن مريم
رسول أتى من عند ذى العرش مرسل

وأن أخا الأحقاف إذ يعذلونه
يقوم بدين الله فيهم ويعـــدل

فهذه هى معانى القرآن الكريم ، والبيت الثالث يشير فيه إلى قول الله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »(١) إشارة إلى هود عليه السلام .

وقوله :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهـــدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

---

(١) الأحقاف ٢١

من قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »(١) .

أغراض شعره :

قال حسان الشعر فى أغراض كثيرة منها الفخر والحماسة ، والمدح والهجاء ففى الجاهلية كان حسان فى فخره يصف مجده ومجد قومه وأحسابهم ومآثرهم ، ومكانتهم بين القبائل العربية ، وكان فخره فخلا جزلا قويا بعيدا فى مذهب الشعر وعموده ، فلما جاء الإسلام أصبح يفتخر بإيمانه وصدق بلائه فى الدفاع عن رسول الله ، وحسن صحبته له ، وإن وقف لسانه وبيانه على خدمة الدين ودعاته .

أما مدحه فكان أكثره فى الجاهلية لبنى غسان وللنعمان بن المنذر ، وأقله لبعض سادة قومه ، ومدائحه لآل الغساسنة وآل النعمان مثل عال فى البلاغة ، فلما أسلم أصبح يمدح رسول الله وخلفائه وكبار الصحابة الذين أبلوا فى الدفاع عن الإسلام بلاء حسنا .

وهجاؤه كان بدؤه هذه المناقضات المتصلة التى كانت بينه وبين قيس ابن الخطيم وشعراء الأوس قبل الإسلام من الأوس والخزرج ، ثم هجا خصومه وأعداء قومه وفى الإسلام أجاد فيه حسان كل الإجادة ، ووقف هجاؤه على المشركين خاصة ، ولم يكن متناول الهجو قريشا كلها بل المشركين فيها بعامة ، وأشدهم على رسول الله بخاصة من مثل أبى جهل وأبى لهب وأبى سفيان ، وكان هجاؤه لأحدهم ليس بالطعن فى أصل نسبه وذم عشيرته ، بل فى نفى نسبه عن نسبهم ، وأنه دعى فيهم أو لصيق ، أو متبنى ، أو عبد ،

---

(١) التوبة ١٢٨

ثم يذكر مايستقبح من صفاته الخلقية ، فيصفه باللؤم وقطع الرحم والجهل، وخفة الحلم والبخل والجبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك ، وأكثر ما يذكر ذلك في موقعة بدر ، وهزيمة قريش فيها .

منزلته وآراء النقاد في شعره :

كان شعر حسان في منزلة عالية من البلاغه والإجادة وقوة التصوير ، وكان حسان يرهب النابغة كلما قابله في بلاط الغساسنة أو المناذرة ، ولا يتعرض له ولحسان من روائع القصيد مايعد من النماذج العالية في الشعر العربي ، وما يقف مع بعض روائع النابغة على قدم المساواة ، وإذا كان النابغة يجيء في الجاهلية إماما ومتبوعا فلا على حسان أن يجيء وراءه مصليا ومغيرا في وجود الشعراء ويصونه أنه كان أشعر شعراء الحضر قبل الإسلام ، وشاعر المدينة ، ولقد أجمعت العرب على أن حسانا كان أشعر أهل المدر ، وهم أهل المدينه ومكة والطائف وأهل قرى البحرين من عبد شمس . وفي الإسلام أصبح شاعر الرسول والإسلام والنبوة .

يقول ابن سلام فيه : هو كثير الشعر جيده ، وجعله أشعر شعراء المدينة .

ويقول الأصمعي : حسان أحد فحول الشعراء ، ويقول أبو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاثة : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام .

وقال أبو الفرج الإصفهاني : حسان فحل من فحول الشعراء(١).

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٨٤ ، والشعر والشعراء ٤ ١ نقلا عن من الأدب العربي القديم ١٧

وقد ذكروا أن الحطيئة وقف على «حسان» وهو ينشد فى شعره فقال له حسان وهو لا يعرفه: كيف تسمع هذا الشعر يا أعرابى؟ قال «الحطيئة» لا أرى بأساً به، فغضب حسان، وقال: اسمعوا إلى كلام هذا الأعرابى: ما كنيتك؟ قال: أبو مليكة؟ قال ما كنت قط أهون على منك حين كنيت بامرأة فما اسمك قال: الحطيئة، فقال «حسان»، امض بسلام.

ويروى أن قوم الحطيئة قالوا له وقد حضرته الوفاة يا أبا مليكة أوصى فقال ويل للشعراء من راوية السوء، قالوا أوصى: رحمك الله، قال أبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول:

يغشون حتى ما تهر كلابهم   لا يسألون عن السواد المقبل(١)

هذا ومن جيد شعره قوله فى الحكمة:

أصون عرضى بمالى لا أدنسه   لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعه   ولست للعرض إن أودى بمحتال

وقوله:

وإن امرءاً يمسى ويصبح سالما   من الناس إلا ما جنى لسعيد

هذا. وقد كف بصره فى أواخر حياته، ومات فى خلافة معاويه سنة ٥٤ هـ(٢) ومن قوله عندما جاء وفد من بنى تميم يفاخر النبى ﷺ، فدعا عليه الصلاة والسلام بحسان، وطلب منه أن يجيب فقال مرتجلا مؤيدا الرسول عليه الصلاة والسلام فى دعوته، ورافعا قومه إلى أعلى المنازل.

---

(١) الأغانى جـ ٢ ص٥٧ نقلا عن «من الأدب العربى القديم» ٢٠
(٢) أنظر من الأدب العربى القديم ٣- ٢٠، والتاريخ الأدبى ١١٧-١٢٨

يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته

١ — إن الذوائب من فهر وأخوتهم
قد بينوا سننا للنـــاس تتبـــع

٢ — يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الاله وبالأمر الذى شرعوا

٣ — قوم إذا حاربو ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

---

(١) « الذوائب » جمع ذؤابة ، وهى الناصية ، أو منبتها من الرأس . والمراد السادة والأعيان والعظماء .

وفهر : هو فهر بن غالب أصل قريش ، والمراد بإخوتهم : الأنصار السنه : السيره والطريقة ، وتتبع: أى يتبعها الناس ويدينون بها ، أوخليقة وجديره بأن تتبع لأنها حق وخير .

والمعنى : إن سادة المهاجرين والأنصار ، وفيهم رسول الله ﷺ قد هدوا الناس إلى دين كريم جدير بأن يتبع لما فيه من الخير والهدى والنور .

(٢) السريرة : مايكتم عن الناس ، ومايستكن فى الضمير ، والخالص من الاحساس والشعور والتقوى : الحذر والخوف ، وشرعوا : سنوا : أى لتنفذها والأخذ بها .

والمعنى : إن تعاليم هذا الدين تتفق مع هوى كل قلب سليم يتقى الله ، فيرضى بها ، وبتشريعتها النافعة .

(٣) القوم: الجماعة من الرجال والنساء معا ، أو الرجال خاصة ، أو يدخل

٤ — سجية تلك فيهم غير محدثة
إن الخلائق - فاعلم - شرها البدع

فيهم النساء تبعاً، ويجمع على أقوام، والعدو: ضد الصديق، ويطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، وقد يثنى ويجمع ويؤنث، وهو من «العدو» بمعنى التجاوز، ومنافاة الالتئام.

حاولوا: راموا وطلبوا، والأشياع: جمع شيعة وهى أتباع الرجل وأنصاره وفرقته تطلق على المذكر والمؤنث، مفردا او مثنى أو جمعا وغلبت كلمة «الشيعة» على أتباع على كرم الله وجهه خاصة حتى صارت علما عليهم.

والمعنى: إن هؤلاء القوم أشداء على الكفار، إذا حاربوهم أضروا بهم، رحماء بينهم ينفعون أتباعهم وأنصارهم بالهداية والحماية.

(٤) السجية: الغريزة والطبيعة والجبلة، مأخوذة من سجى: إذا سكن ودام غير محدثة: أى تليده فيهم غير جديدة، فهى موروثة عن الآباء والأجداد منذ القدم والخلائق جمع خليقة: وهى الطبيعة.

والبدع: جمع بدعة. وهى الأشياء المستحدثة المخالفة للطبائع والأذواق السليمة.

والمراد: الأخلاق غير الأصيلة:

والمعنى: إن شجاعتهم وبطولتهم وكرمهم ونجدتهم امور متأصلة فيهم ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ومن ثم فقد كان خلقهم الأصيل هو الخير، أما الأخلاق المستحدثة غير الأصلية فهى شر ما يبتلى به الناس.

٥ — لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم
عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

٦ — إن كان في النفس سباقون بعدهم
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

٧ — ولا يضنون عن مولى بفضلهم
ولا يصيبهم في مطمع طبع

«٥» يرقع : مضارع « رقع » الثوب من باب منع ـ إذا أصلحه بالرقاع أوهت : أضعفت وخرقت ، والمراد أسقطت ، والدفاع : الزحام في شئون الحياة ، وميادينها المختلفة .

والمعنى : إن هؤلاء المؤمنين بالله ، الصادقين في إيمانهم ، المخلصين في عقيدتهم يرفعون من أرادو ، ويضعون من أرادوا ، ولا يستطيع الناس أن يرفعوا من وضعوه ، أو يخفضوا من رفعوه ومن هنا فالكلمة لهم ، والسبق لهم .

«٦» سباقون : جمع سباق وهو صيغة مبالغة من سابق ، وهو المقدم من الناس ، أو الفرس في الحلبة ، والأدنى : الأقرب والأقل مسافة وتبع أي تابع .

والمعنى : ليس في الوجود من يسبق هؤلاء الأكارم ، وليس هناك من يتقدمهم في ميادين الحياة ، ولو حدث أن وجد سابق من سواهم ، فإنه حتما يكون تاليا لأقرب سابق منهم في حلبة السابق ، ولن يستطيع أحد التقدم عليهم بأية حال من الأحوال ،

(٧) يضنون : مضارع : ضن من بابي تعب ، وضرب : أي بخل .

٨ — لا يجهلون وإن حاولت جهلهم
في فضل أحلامهم عن ذاك متسع
٩ — أعفه ذكرت في الوحي عفتهم
لا يطمعون ولا يزرى بهم طمع

المولى : الموالى والمناصر المحالف ، والمطمع : ما يطمع في تحقيقه وتحصيله من الأماني الطيبة والآمال المشروعة ، و « عن » بمعنى « على » .

والطبع : الدنس والعيب . وفي الحديث الشريف « نعوذ بالله من طمع يهدى إلى طبع » أي يؤدى إلى عيب ودنس .

والمعنى : أنهم يمدون يد العون والمساعدة والحماية لأنصارهم وحلفائهم ولا يبخلون عليهم بفضلهم ، كما أنهم في سبيل تحقيق آمالهم والحصول على أمانيهم لا يلجئون للطرق الخبيثة ، ولا الأساليب الحقيرة ، ولا يرضون في تصرفاتهم عيبا ، ولا دنسا .

(٨) لا يجهلون : لا يتصرفون تصرفا طائشا ، وحاولت : تعمدت وقصدت والفضل ضد النقص ، والمراد فاضل أحلامهم ، من إضافة الصفة للموصوف والأحلام جمع « حلم » وهو الأناة والعقل ، و « متسع » مكان اتساع ، وهو مبتدأ مؤخر ، خبره « في فضل » .

والمعنى : إنهم حكماء وعقلاء يفضلون الأناة ، فلا يحدث منهم غضب يرميهم في بوتقة الجهل ، ولو تعمد أحدا إخراجهم عن طبيعتهم السمحة ، وتصرفاتهم المهذبة فلن يستجيبوا له ، وستظل أخلاقهم ساحة فسيحة وميدانا واسعاً يذوب فيه جهل الجاهلين .

— ٩ أعفة : جمع « عف » وعفيف ، وهو من كف عما لا يحل له ولا يجمل به

١٠ — كم من صديق لهم نالوا كرامته
ومن عدو عليهم جاهد جدعوا

١١ — أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم
فما ونى نصرهم منه وما نزعوا

الوحى : الموحى به ، وهو القرآن ، ويزرى بهم : يعيبهم ويحقرهم ، والفعل « يزرى » مضمن معنى ينزل ولهذا عداه بالباء .

والمعنى : أن أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أنفة وإباء وعفة يترفعون عن الدنايا ، ويأبون النقص ، ويرفضون العيب ويكرهون الطمع والجشع ولهذا أثنى عليهم مولاهم وسجل لهم القرآن الكريم ذلك فى أجل بيان .

« ١٠ » الصديق : المحب ، والصداقة المحبة ، نالوا كرامته : أى أعطوه كرامته أى أعطوه إياها ، والمراد . منحوه كرامته .

جدعوا : أى حبسوا وسجنوا ، أو قطعوا أنفه . أو أذنه أو يده ، أو شفته ، فعلى المعنى الأول يكون المراد : أعجزوه عن العمل ضدهم ، وعلى الثانى يكون كناية عن الذلة ، لأن قطع عضو من هذه الأعضاء يكون سمة على الهزيمة والهوان .

والمعنى : إن صديقهم يفيد منهم المنعة والقوة والعزة والكرامة ، وعدوهم يكسب منهم الضعف والهوان .

١١ — الاعطاء : كالمعاطاة والعطاء : المناولة والانقياد ، والمراد : انقادوا له و « نبى » فعيل بمعنى فاعل . وهو المخبر عن الله تبارك وتعالى ، والمختار عدم همزة ، وقد نهى رسول الله ﷺ الأعرابى عن ذلك حين قال له : يانبئ الله . فقال الرسول : لاتنبز باسمى ، فانما أنا نبى الله ، أى بغير همز ، والهدى : الرشاد والدلالة على الخير ، والبر : الصلة والخير والاحسان .

١٢ — إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم :
أوقال هوجوا علينا ساعـــة ربعوا

١٣ — مازال سيرهم حتى استقاد لهم
أهل الصليب ومن كانت لهم بيع

والطاعة : الانقياد ، و « ونى » فتر وتأخر « والمضارع : ينى والنصر : المعاونة والمساعدة ، ونزعوا : انفضوا وانصرفوا :

والمعنى : لقد أسلموا أنفسهم لله ، وألقوا قيادهم لرسول الله ، وقدموا أرواحهم وأموالهم فى سبيل الله ، فما تأخروا عن مناصرته ، وما نكصوا عن معاونته :

١٢ — أجدوا : أجتهدوا فيه ، أوعجلوا ، والجهد : بفتح الجيم وتضم الطاقة والقدرة أى على قدر طاقتهم ، وعوجوا أمر من عاج : أى أقام ووقف وربعوا : وقفوا وأنتظروا :

والمعنى: أنهم بطاعتهم الكاملة وانقيادهم التام لرسول الله ﷺ أصبحوا تحت أمره ، ورهن أشارته ، وأنهم يبذلون فى طاعته منتهى الجد وأقصى الطاقة ، ويسرعون فى الاستجابة إليه والدفاع عنه .

١٣ — زال : هنا ـ من الزوال بمعنى الذهاب والتحول : أى ماتوقف سيرهم « أو ماتغير سيرهم وزال : هنا تامة .

استقاد : انقاد واستسلم وخضع ، « أهل الصليب » النصارى : يزعمون أن عيسى عليه السلام قتل وصلب ، وأن اليهود هم الذين فعلوا به ذلك . وفى القرآن الكريم « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . إلخ الآية : ١٥٧ « النساء »

والبيع : جمع بيعة والمراد بها : معابد اليهود .

١٤ — خذ منهم ماأتى عفوا إذا غضبوا
ولا يكن همــك الأمر الذى منعوا
١٥ — فإن فى حربهم - فاترك عداوتهم -
شرا يخاض عليه الصاب والسلع

= والمعنى : استمر أصحاب الرسول ﷺ فى طاعتهم ومتابعتهم لرسول الله ﷺ ، حتى خضع اليهود والنصارى وآمن المشركون ، وانتصر الاسلام أعظم انتصار

١٤ — العفو : أحل المال وأطيبه ، والفضل والمعروف ، والمراد هنا: ماجاء عن غير قصد ، وبدون عمد ، والهم : الحزن ، والكلام على حذف مضاف ، أى موضع همك والهم « مانويته فى نفسك ، ويجوز رفع «الهم» ونصبه ، وكذلك « الأمر » على أن أحدهما اسم يكن ، والآخر خبرها ، « والذى منعوا » أى الذى جعلوه فى منعة ، أو الذى أبوه ، ولم يسمحوا به

والمعنى : إنهم محاربون أبطال ، ومقاتلون شجعان ، فإذا غضبوا هاجت الدنيا وماجت وإذاثاروا أطاحوا بكل القوى أمامهم ، فلا معنى لمناقشتهم فى حالة الغضب ، ولا مجال لمحاولة مارفضوا ،

١٥ — عداوتهم : معاداتهم ومخاصمتهم ، و « يخاض » مضارع المبنى للمفعول : من خاض الماء يخوضه ، إذا دخل لجته ، وخاض الغمرات : اقتحمها ، وعليه : فوقه .

والصاب : شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة ، إذا أصابت العين أتلفتها :

والسلع شجر مر : ينبت فى اليمن ، وهو من الفصيلة العنبية .

١٦ — نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها
إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

١٧ — لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم
وإن أصيبوا فلا خور ولا جوع

= والمعنى : تجنب عداوتهم ما استطعت ، واحذر خصومتهم ما قدرت ، فإن من يحاربهم يركب متن الأخطار ، ثم يخوض عليه شجرا مرا ماؤه من عصارات الصاب ، وقطراته من شراب السلع .

١٦ — نسمو : نعلو ، ونأبى الذلة والخضوع ، ومخالب الحرب أسلحتها .

الزعانف : جمع : زعنفة ، وهى ردىء كل شىء ورذالة ، والطائفة الشاذة المنفردة عن قبائلها ، والقطعة من الثوب أو أسفله المتخرق ، والقطعة من القبيلة تشذ وتنفرد ، وكل جماعة ليس أصلها واحد

والمعنى: إذا اشتدت الحروب ، فإننا نصعد بالعمليات الحربية ونواصل كفاحنا حتى يحقق الله النصر، ولا نفعل ما تفعله الزعانف الذين يتملكهم —

— الخوف ويصيبهم الوهن ، ويتراجعون عن لهيبها ، ويستكينون للذلة والخضوع .

١٧ — لا فخر : أى لا يفخرون إذا انتصروا على عدوهم ، لأن ذلك من طبيعتهم .

الخور من النساء : الكثيرات الريب لفسادهن ، وضعف دقولهن ، ولا واحد له من لفظه ، وهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره : فلاهم خور

والجزع : جمع جزوع : أى شديد الخوف .

١٨ — أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع

لقد قيلت هذه القصيدة بعد أن أشرقت شمس الاسلام على مكة والحرم ونزلت إلى ميدان المديح ، مع أطيب ريح ، حيث أشادت بالنبي الكريم وعترته ومجدت حسبه ونسبه ، وأطرت صاحبته وتابعيه ، ورفعت أعلامهم فوق الذرى ، وتحدثت عن المبادىء العليا ، والمثل الخالدة وقدمت الاسلامية الصافية على مائدة النقاش .

ثم وصفت المسلمين الأول الوصف الأمثل ، وذكرت أنهم حملوا المشاعل ، وأنهم بنوا فأحسنوا البناء ، وأنهم مشرعون حكماء علماء .

وإلى جانب هذا فهم أبطال صناديد على السجية ، ثم نثرت كثيرا من من لآلىء عفتهم وجواهر كرمهم إلى مدى يبتعد عن سمات البشر

= والمعنى : انهم سالمون من الصفات المعيبة ، فلا يفخرون بالنصر على على عدوهم ولا يضعفون ولا يجزعون إذا أصيبوا بهزيمة أو مكروه

١٨ — أكرم : صيغة تعجب فعل ماض على صورة الأمر ، وبقوم : الباء زائدة ، وقوم فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد

والشيعة : الأنصار والمراد : ناصرهم ومؤازرهم ، والأهواء : جمع هوى والمراد : الآراء ، واتجاهات النفوس

والمعنى : ماأعظم كرم اولئك القوم الذين يقودهم رسول الله ﷺ في طريق الخير بعيدا عن الطرق المختلفة والميول المتعددة

ثم انسابت فى الحديث عن تكريمهم لأصدقائهم ، وجهادهم لعدوهم ثم عن مدى طاعتهم لقائدهم ورائدهم ، والتفافهم حوله ، واستماعهم إليه ، حتى خضع أهل الكتاب وخشع عبدة الأصنام ، وانتشر لواء الإسلام

وبعد هذا أفاضت القصيدة فى وصف أخلاقهم الحيدة ، فهم أبطال لايستهان بهم ؛ وهم لايفخرون إذا انعقد لواء النصر لهم ، ولا يجزعون إن أصيبوا من عدوهم .

ثم ختم القصيدة بأعظم نفحة تفح بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه شيعتهم وحزبهم ونصيرهم ولهم بذلك أعظم منازل الشرف ، وأرفع درجات المجد ، فهم أفضل الناس طرا ، وخـــير البرية جميعا ، ولهذا أهدى لهم الشاعر مدحته ، وقدم إليهم باقته حافلة بالزهور والرياحين (١)

هذا . وفى القصيدة صور بلاغية رائعة

ففى قوله — فى البيت الأول — إن الذوائب من فهر وأخوتهم — توجد استعارة تصريحية فى كلمة « الذوائب » حيث شبه قريش والأنصار بالذوائب بجامع العلو فى كل ، ثم حذف المشبه ، وأقام المشبه به مقامه

وفى قوله — فى البيت الثانى — من كانت سريرته تقوى الله . كناية عن سلامة الطبع ، فعبر عن هذه الصفة بذكر مايدل عليها ، وهو الميل إلى تقوى الله

---

(١) انظر مختارات من روائع الأدب د / عبد السلام سرحان ٣٦٢، ٣٧١

وفى قوله — فى البيت الثالث — قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم — حذف المسند إليه والتقدير : هم قوم ، وفى قوله « حاربوا » بمعنى هاجموا مجاز مرسل علاقته المسببة :

وفى قوله — حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا — كناية عن حبهم للخير والنفع .

وفى قوله — فى البيت الرابع — إن الخلائق شرها البدع — خبر يقصد به النصح والارشاد

وفى قوله — فى البيت الخامس — لايرقع الناس ما أوهت أكفهم ، كناية عن شجاعتهم وقوة بأسهم

وفى قوله — فى البيت السادس — إن كان فى الناس سباقون .. إلخ » كناية عن أسبقيتهم فى ميادين الحياة ، وضعف غيرهم وعـــدم قدرتهم اللحاق بهم .

وفى قوله - فى البيت السابع - ولا يضنون عن مولاهم بفضلهم - كناية عن كرمهم وسخائهم - وقوله ولايصيبهم فى مطمع طبع - كناية عن أصالتهم وبعدهم عن العيب والدنس

وفى قوله - فى البيت الثامن - لايجهلون وإن حاولت جهلهم - مجاز مرسل فى - لايجهلون - علاقته السببية .

وفى قوله - فى البيت التاسع - لايطمعون ؛ ولا يزرى بهم طمع : كناية عن عفتهم ، وترفعهم عن الدنايا

وفى قوله - فى البيت العاشر - كم من صديق لهم نالوا كرامته : كناية عن شجاعتهم وعزتهم ومناعتهم - وقوله : ومن عدو عليهم جاهد جدعوا : كناية عن ضعف أعدائهم وذلتهم

وفى قوله - فى البيت الحادى عشر - أعطوا طاعتهم : مجاز عقلى فى فى النسبة الايقاعية ، لأن الطاعة لاتعطى ، والمراد انقادوا له .

وفى قوله - فى البيت الثانى عشر - إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم إلخ كناية عن طاعتهم وانقيادهم لرسول الله ﷺ

وفى قوله - فى البيت الثالث عشر - أهل الصليب - كناية عن النصارى ومن كانت لهم بيع كناية عن اليهود

وفى قوله - فى البيت الرابع عشر - ولا يكن همك - إيجاز بحذف المضاف والتقدير : موضع همك

وفى قوله - فى البيت الخامس عشر - فاترك عداوتهم - جملة اعتراضية قصد بها التحذير والتخويف

وفى قوله - فى البيت السادس عشر - مخالبها وأظفارها . . استعارة مكنية حيث شبهت الحرب بالسبع بجامع الخطر والهلاك واغتيال النفوس فى كل، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الأظفار والمخالب وفى البيت التفات من الغيبة إلى التكلم :

وفى البيت السابع عشر - فى قوله - فلا خور : إيجاز بحذف المسند إليه والتقدير : فلاهم خور ، وفيه - أيضا - تشبيه ووجه الشبه : الضعف

وفى البيت كذلك التفات حيث انتقل من التكلم إلى الغيبة

وفى قوله لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم : كناية عن تواضعهم

وفى قوله : وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع : كناية عن صبرهم وقوة أيمانهم

الحطيئة

فى قصة الكرم

التعريف بالشاعر :

هو جرول بن أوس، وكنيته أبو مليكة نسبة إلى ابنته مليكة واختلف فى سبب تلقيبه بالحطيئة ، فقيل لقب بذلك لقصره وقربه من الأرض .

وقال ثعلب : سمى الحطيئة لدمامته :

وقيل : لقب بذلك لأنه كان يحطوء الرجل ، والرجل المحطوءة التى لا أخمص لها .

والحطيئة شاعر مخضرم ، نشأ فى أسرة فقيرة ، فتكسب بشعره ، فأجاد المدح ، كما برع فى الهجاء ، وقد حبسه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما شكاه الزبرقان بسبب سينية الحطيئة المشهورة التى قال فيها :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ولما أقر حسان بحدة هذا الهجاء ، حبسه عمر ، ولم يعف عنه إلا حينما استعطفه بأبياته العاطفية المؤثرة .

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ
حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
غيبت كاسبهم فى قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله ياعمر

كما شفع له عبد الرحمن بن عوف ، فأخرجه الخليفة ، وقال له إياك وهجاء الناس ، قال : إذاً يموت عيالى ، هذا مكسبى ، ومنه معاش .

وفى رواية أن عمر رضى الله عنه اشترى منه أعراض المسلمين جميعا بثلاثة آلاف درهم ، وأخذ عليه ألا يهجو أحدا بعدها ، فوفى بعهده مد حياة عمر ، ثم رجع إلى الهجاء بعد وفاته .

ويقال إن الحطيئة لما قدم المدينة أول خلافة عمر ، سأله الخليفة : كيف كنتم فى حربكم ؟

قال : كنا ألف فارس حازم :

قال : وكيف يكون ذلك ؟

قال : كان قيس بن زهير فينا ، وكان حازما فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنترة ، فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا أحجم ، وكان فينا الربيع ابن زياد ، وكان ذا رأى ، فكنا نستشيره ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره ، فكنا ، كما وصفت لك .

فقال عمر : صدقت .

وقد عمر طويلا ، وفى السنة الأخيرة من خلافة معاوية وافته المنية سنة ٥٩ هـ(١) .

وفى هذه القصة الشعرية يصف لنا الحطيئة أعرابيا جوادا صاحب صيد ألوفا للفلوات ، نزل به ضيف ، وهو لا يجد القوت الضرورى ، فيضطرب ويخاف العار ، ثم يفكر أن يقدم ابنه طعاما ، لهذا الضيف استجابة

(١) أنظر ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت ٤١ — ٦٢ .

لنداء الكرم ، لولا لطف القدر ، فقد ظفر بصيد كان طعاما لضيفه وفداء لولده .

أسرة بائسة

١ — وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل
ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

٢ — أخى جفوة فيه من الأنس وحشة
يرى البؤس فيها من شراسته نعمى

---

(١) الطاوى : الجائع ، ثلاث : أى ثلاث ليال ، عاصب البطن : الذى يربط بطنه من شدة الجوع ، مرمل : محتاج ، بيداء : صحراء ، الرسم : ما بقى بالارض من آثار الدار .

والمعنى : إن رب هذه الأسرة جائع منذ ثلاث ليال ، يربط بطنه من شدة الجوع ، ويعيش فى هذه الصحراء الموحشة المقفرة التى لم ينزل بها أحد .

(٢) الجفوة : غلظ الطبع ، الإنس والأنس بكسر الهمزة وضمها : ألفة البيوت ، وهو ضد الوحشة : أى النفور ، البؤس : الشدة ، فيها : الضمير للبيداء .

والمعنى : هو رجل عنيف الطباع ، محب للعزلة ، لا يألف الناس ، يرى الوحدة فى هذه الصحراء نعيما ، وسعادة لشدة نفوره من الخلق .

٣ — تفرد في شعب عجوزا إزاءها
ثلاثة أشباح تخالهم بهما

٤ — حفاة عراة ، ما اغتذوا خبز ملة
ولا عرفوا البر مذ خلقوا طعما

---

(٣) تفرد : اعتزل الناس ، والضمير للأعرابي الموصوف سابقا ، الشعب الطريق في الجبل ، عجوزا : منصوب بإسقاط الباء ، والأصل تفرد بعجوز ، البهم : جمع بهمة : ولد الضأن والماعز :

والمعنى : سكن في هذا المكان مع زوجته العجوز ، وأطفاله الثلاثة الذين هزلهم الجوع فصاروا أشباحا يحسبهم الناظر من الماعز أو من حملان الضأن لاعتلال صحتهم وضعفهم .

(٤) ما اغتذوا : لم يأكلوا ، خبز ملة : الخبز الذي ينضج على الجمر والرماد الحار البر : القمح .

والمعنى : هؤلاء الأولاد حفاة الأقدام عراة الأجسام ، لم يأكلوا القمح طول حياتهم .

ضيف وحيرة

٥ — رأى شبحا وسط الظلام فراعه
فلما رأى ضيفا تشمر واهتما

٦ — فقال هياربا ، ضيف ولا قرى
بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما

٧ — فقال ابنه لما رآه بحيرة
أيا أبت اذبحنى ويسر له طعما

---

(٥) راعه : أفزعه .

والمعنى : رأى شبحا فى الظلام ، مقبلا عليه فخاف إذ يجوز أن يكون عدوا فاتكا ، يقصده بسوء ، فلما وجده ضيفا ، استعد لقائه ولإكرامه .

(٦) هيا : حرف نداء ، وهياربا : يارب - القرى : طعام الضيف ، تا الليلة : هذه الليلة :

والمعنى : قال : يا رب ضيف ولا طعام له ، وحقك يا إلهى أرزقنى برزقه ولا تحرمه اللحم فى هذه الليلة :

(٧) يسر له : هيء له ، الطعم : الطعام .

والمعنى : لما رأى الابن أباه فى حيرة وهم ، أسرع إليه ، يقدم نفسه ضحية الكرم قائلا : إذبحنى يا أبى ، وقدم لحمى طعاما لضيفك .

٨ — ولا تعتذر بالعدم عل الذى طرا
يظن لنـــا مالا فيوسعنا ذما

٩ — فروى قليلا ثم أحجم برهـة
وإن هو لم يذبح فتـاه فقـدهما

نجـــدة

١٠ — فبيناهما ، عنت على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

---

(٨) العدم : الفقر الشديد ، عل : لعل : طرا : أصابها طرأ أى الذى نزل بنا ، يوسعنا ذما : يبالغ فى ذمنا :

والمعنى : لاتعتذر له بالفقر ، فلعله يظن أننا أغنياء ، ونبخل عليه بالطعام، فيذمنا بين الناس ،

(٩) روى : فكر فى الأمر ، أحجم : امتنع وتراجع ، هما : حاول أن يفعل :

والمعنى : لقد تحير الوالد وفكر فيم يفعل ، وهو فى صراع بين عاطفتين : عاطفـة الأب الحنون الذى يحب ولده ، وعاطفـة العربى الكريم الذى يأبى الضيم ، وبقى فى هـذه الحيرة فترة من الزمن ، حتى لقـد حاول أن يذبح ابنه فعلا استجابة لنداء الكرم لولا أن لطف الله :

(١٠) فبيناهما : عنت : عرضت وظهرت ، العانة القطيع من حمر الوحش

═

١١ — ظماء تريد الماء، فانساب نحوها
على أنه منهـــا إلى دمها أظما

١٢ — فأمهلها حتى تروت عطاشها
فأرسل فيهـا من كنانته سهما

١٣ — فخرت نحوص ذات جحش فتية
قد اكتنزت لحما، وقد طبقت شحما

= المسحل: الحمار الوحش - انتظامها من خلفه: إنضمامها إليه: وقربها منه.

والمعنى: وبينما هو فى حيرة مع ولده، إذ أقبل عليهما قطيع من حمر الوحش، يسير صفا منتظما وراء قائده.

(١١) ظماء: عطاشا، أنساب: سار إليها فى هدوء على أطراف أصابعه، من غير أن يحدث صوتا، أظما، مخففة من أظمأ: أى أكثر عطشا.

والمعنى: كان القطيع يسير إلى الماء ليرتوى، فسار الرجل إليه، وهو أشد ظمأ إلى دمائه، متلهفا على اقتناص شيء منه.

(١٢) أمهلها: صبر عليها، تروت شربت وارتوت الكنانة: جعبة السهام التى توضع فيها.

والمعنى: انتظر الرجل حتى شربت الحمر، ثم رمى بسهم من كنانته فأصاب هدفه.

(١٣) خرت: سقطت، نحوص: أتان، أنثى حمار الوحش، اكتنزت امتلأت، طبقت شحما: عمها الشحم وغطاها.

والمعنى: سقطت أتان سمينة، قد تراكم لحمها، وغطاه شحمها.

فرحة عامة

١٤ — فيا بشره إذ جرها نحو قومه
ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى

١٥ — فباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم
فلم يغرموا غرما ، وقد غنموا غنما

١٦ — وبات أبوهم من بشاشته أبا
لضيفهم ، والأم من بشرها أما

---

(١٤) يا بشره : ما أعظم سروره ، كلمها ، جرحها ، يدمى : يسيل دمه .

والمعنى . ما أعظم فرحة الأعرابى ، وقد جر صيده إلى أهله وضيفه ، وما أعظم فرحتهم جميعا ، وقد رأوا جرح الذبيحة السمينة يسيل منه الدم .

(١٥) ما غرموا غرما : ما خسروا شيئا ، وقد غنموا غنما ، قد كسبوا كثيرا .

والمعنى : وباتوا سعداء ، بما قاموا به من واجب الضيافة ، وما خسروا فى ذلك شيئا ، وإنما كسبوا ثناء الضيف العاطر .

(١٦) المعنى : لقد شعر الضيف بأنه بين أبويه يمنحانه العطف ، ويغدقان عليه حسن المعاملة ، ويبشان له ، ويهشان فى وجهه(١) .

---

(١) أنظر ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت والسكرى والسجستانى تحقيق د/ نعمان طه ٣٩٦-٣٩٩ .

فى هذه القصيدة نجد الحطيئه الشاعر البارع ، والقصاص المجيد تتوافر فى قصيدته عناصر القصة الحديثة .

إنه يبدؤها بالتمهيد لمسرح قصته حيث صور حال أسرة بائسة لا تجد قوت يومها ، ولها عائل جاف غليظ الطبع قد أنقاته هموم الحياة وقسوتها ، فلم يجد طعما للراحة ، ولا لذة للعيش

وفى المقطع الثانى : تأتى العقدة ، ويسعى حلها ، بأن ينزل بالأسرة الجائعة المحرومة ضيف ؛ فى ظلام الليل البهيم ، وتكون حيرة الأب وحزنه وألمه ، ويحاول الابن أن يخفف على أبيه ، وأن ينقذه من متاعبه فيعرض حياته فداء لشرف الأسرة ، وحفاظا على سمعتها الطيبة ، وسيرتها المشرقه فى إيوائها الضيف ؛ وإكرامه ؛ وهنا تتفاقم مشكلة الأب ، وتقوى آلامه . وتزداه حيرته حيث تتصارعه عاطفة الأبوة ، وعاطفة الكرم . .

وفى المقطع الثالث يبرق شعاع الأمل ، فى حل هذه العقدة ، بظهور سرب من حمر الوحش .

وفى المقطع الرابع : تحل العقدة ، وتكون الخاتمة السعيدة حيث تعم الفرحة الأسرة بأسرها ، وتقر عين الأب بإكرامه ضيفه .

وفى القصيدة نجد أثر البيئة البدوية ظاهر فى اختيار الألفاظ نحو : مرمل ، وبيداء ، ورسم ، وشعب ، وكنانة :

كما نجد تأثر الشاعر بما جاء فى القرآن الكريم من قصة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام فى قوله تعالى:

« يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى : قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين »(١) :

ويدل هذا على تأثر الحطيئة ، بالإسلام الذى استقى منه بعض المعانى فى قصيدته ، إلى جانب تأثره بالبيئة البدوية التى أخذ منها الكثير من المعانى والألفاظ ، والصور الخيالية .

هذا . وفى القصيدة الكثير من الصور البلاغية الرائعة :

ففى قوله ـ فى البيت الأول ـ طاوى ثلاث ـ وعاصب البطن ـ ومرمل ثلاث كنايات عن شدة الفقر والحرمان .

وفى قوله ـ لم يعرف بها ساكن رسما ـ كناية عن وحشة الصحراء وقفرتها .

وفى قوله ـ فى البيت الثانى ـ أخى جفوة ، وفيه من الإنس وحشة ـ ويرى البؤس فيها من شراسه نعمى ـ كنايات ثلاث عن الشراسة ، والجفاء ، وغلظ الطبع .

وفى قوله : — فى البيت الثالث — تخالهم بهما — تشبيه حيث شبه الضمير . « هم » العائد على الأشباح بالبهم ، فى الضعف والهزال .

وفى قوله : — فى البيت الرابع — « حفاة » و « عراة » و « ما اغتذوا خبز ملة » ، و « لا عرفوا البر مذ خلقوا طعما » : أربع كنايات عن البؤس . والفاقه .

---

(١) الصافات ١٠٢ .

وفى قوله : ـ فى البيت الخامس ـ تشمر كناية عن أخذ الأمر أخذ الجد ؛ والاستعداد لقاء الضيف :

وفى قوله : فى البيت السادس — هيا رباه — نداء قصد به الاستغاثة .

وقوله . « لا تحرمه » . أسلوب نهى قصد به الدعاء ،

وفى قوله : — فى البيت السابع — إذبحنى وييسر — أمر قصد به الدعاء .

وفى قوله : — فى البيت الثامن — لا تعتذر بالعدم — نهى قصد به الدعاء .

وفى قوله ـ فى البيت التاسع ـ فروى قليلا ، ثم أحجم برهة ـ كناية عن الحيرة التى أصابته .

وفى قوله ـ فى البيت العاشر ـ فبينا هما عنت على البعد عانة — إيجاز بالحذف ـ والتقدير . فبينما هما فى هذا الموقف العصيب ، ظهر على البعد القطيع من الحمر الوحشية .

وفى قوله . — فى البيت الحادى عشر — تريد الماء — إيجاز بحذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، والتقدير — تريد شرب الماء .

وفى قوله : ـ فى البيت الثانى عشر ـ فأمهلها حتى تروت عطاشها ـ كناية عن الرحمة .

وفى قوله : — فى البيت الثالث عشر — قد طبقت شحما ـ كناية عن امتلائها .

وفى قوله : — فى البيت الرابع عشر — يا بشره إذ جرها نحو ، قومه — ويا بشرهم لما رأوا كلها يدى — أسلوب نداء قصد به ، التعجب .

وفى قوله — فى البيت الخامس عشر — وما غرموا غرما ، وقد غنموا غنا — مقابلة حسنة .

وفى قوله -فى البيت السادس عشر — تشبيه رائع حيث شد جمل أبا الأطفال أبا للضيف ، وأمهم أماله ووجه الشبه البشاشة وإشراقة الوجه التى تدل على الحب الصادق . والوجدان الصافى .

من وحي القرآن الكريم

الاتحاد قوة

قال تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعاً(١) ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف(٢) بين قلوبكم ، فأصبحتم(٣) بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة(٤) من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة(٥) يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم(٦) .

---

(١) اعتصموا : تمسكوا ، حبل الله : عهد الله كما قال ابن عباس ، أو القرآن كما قال ابن مسعود .

(٢) ألف : جمع ووحد .

(٣) أصبحتم : صرتم :

(٤) شفا الحفرة : طرفها ، وأشفى على الشيء أشرف عليه .

(٥) أمة : جماعة مؤتلفة متحدة ، ومن في « منكم » للتبعيض .

(٦) آل عمران الآيات ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥

الانفاق فى سبيل الله

وقال سبحانه :

مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله(١) كمثل حبة أنبتت سبع سنابل(٢) فى كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم، الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا(٣) ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون .

قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم(٥) بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس(٦) ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله ، كمثل صفوان عليه تراب(٧) فأصابه وابل(٨) فتركه صلدا(٩) لا يقدرون على شىء مما كسبوا ،

---

(١) السبيل : الطريق ، وهو سبيل الله ، دينه وطاعته ، وعمل الخير .

(٢) إسناد الانبات للحبة مجاز عقلى علاقته السببية .

(٣) المن : ذكر النعمة على معنى التعديد لها، والتقريع بها ، مثل أن يقول: قد أحسنت إليك ، وقال بعضهم : المن : التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه .

(٤) الأذى : السب والتشكى ، وهو أعم من المن ، لأن المن جزء من الأذى .

(٥) لا تبطلوا صدقاتكم : لا تضيعوا ثوابها وأجرها .

(٦) رئاء الناس : يفعل الفعل لأجل أن يروه فيحمدوه .

(٧) الصفوان : الحجر الأملس .

(٨) المطر العظيم القطرات .

(٩) الصلد : الأجرد النقى من التراب .

والله لا يهدى القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون أموالهم إبتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم(١) كمثل جنة بربوة أصابها وابل(٢) فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها فطل(٣) والله بما تعملون بصير(٤) .

من مظاهر القدرة والرحمة

وقال جل شأنه(٥) .

إن الله خالق الحب والنوى(٦) ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى(٧) ، ذلكم الله فأنى تؤفكون(٨) ، فالق الاصباح ، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا(٩) ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو

---

(١) تصديقا .

(٢) الجنة : البستان ، الربوه : المكان المرتفع .

(٣) المطر الخفيف .

(٤) البقرة الآية ٢٦١ وما بعدها ،

(٥) الأنعام الآيات من ٩٥ — ٩٩

(٦) فالق : شاق ، الحب : البذر ، والنوى : جمع نواه ، ما تسكون فى التمر ونحوه .

(٧) يخرج الحى من الميت : أى النبات من الحبوب والنوى ، ومخرج الميت من الحى : يخرج الحب والنوى من النبات الحى ، واللبن ، والفضلات من الحيوان الحى .

(٨) ذلكم : أى صانع هذا وموجده ، هو الله لاسواه ، وتؤفكون : تصرفون .

(٩) الاصباح : الصبح ، وفلقه : شق الليل عنه ، وسلخه منه ، وسكناً راحة وهدوءا حسبانا ، مصدر الحساب الزمان وتقدير الأوقات .

الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون .

وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون(١) ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا(٢) نخرج منه حبا متراكبا(٣) ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية(٤) وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . أنظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه(٥) ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون .

---

(١) يفقهون : الفقه : الفهم مع العمق فى التفكير ، والمستقر : ما كان فى الرحم والمستودع : ما كان فى الصلب .

(٢) خضرا : قال الأخفش : أى أخضر ، وقال ابن عباس يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب .

(٣) متراكبا : أى يركب بعضه فوق بعض كالسنبلة .

(٤) الطلع : شىء يخرج من ذكور النخل ، ويحمله الهواء إلى إناثها فينتج الثمر ، و« قنوان » جمع « قنو » : كباسة النخلة ، ودانية : قريبة .

(٥) ينعه : نضوجه واكتماله .

من الهدى النبوى الكريم

كتاب الرسول ﷺ إلى كسرى عظيم فارس

« من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله تعالى ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم » .

إن السلام فى هذه الرسائل كان أسلوبا جديدا فى المخاطبات ، ثم إن هذا الاحتياط فى التسليم ضرب من الدقة ، فهو سلام وعافية ودعاء لمن اتبع الهدى والسلام ، كما يقول أبو القاسم الأصفهانى هو التعرى من الآفات الظاهرة والباطنة ، وهو ما ذكره ابن القيم فى قوله : وحقيقة هذه اللفظة — يعنى السلام — البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها .

وما كان لرسول الله ﷺ أن يدعو بذلك ، إلا لمن آمن بالله ، أو كان على شىء من الحق فى معتقده ، ولهذا لم يوجه السلام هنا إلى كسرى ، وإنما جعله سلاما لمن اتبع الهدى ، وبهذا تكون الرسالة قد بدأت بداية مؤنسة وملاطفة ثم احتاطت فى التعبير ، فلم تطلب من الله السلامة لأعدائه والجاحدين لوجوده وفضله سبحانه .

ثم إن هــذا إغراء المخاطب باتباع الهدى ، ليكون من بين أهل السلام والبراءة والخلاص من الشرور والآفات ، وهى أيضاً ملوحة من وجه آخر إلى أنه لا أمان ولا سلام ، ولا نجاة لمن حاد عن الهدى أو عاداه ، وكأن هذه الطريقة الواعية فى الصياغة تطوى وراءها وعدا ووعيدا ، وإغراء وتحذيرا ، وفى هذا إعتداد وثقة بالغلبة ، وأن صاحب

هذه الرسالة حين يؤكد أن الإسلام والأمان والنجاة لمن سلك طريق الدين الذي يدعو إليه ، وأن الويل والثبور لمن عاند ، لا يصدر مثل هذا إلا عن فضل اعتداد وإحساس مستحكم بالنصر والغلبة ، وخصوصا حين يوجه مثل هذا الخطاب إلى من هو في منزلة كسرى عظيم فارس .

وتعريف الهدى في قوله : « سلام على من اتبع الهدى » يعني الهدى المتعالم المعروف الذي هو هدى الله ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى « إن هدى الله هو الهدى »(١) .

فكل ما تهتدي إليه العقول البشرية غير الموصولة بالله والباحثة عن الأصول الضابطة لمناحي الحياة والسلوك ونظام الاجتماع ، وسياسة الأمم ، هو في حقيقته ليس هدى كاملا لأنهم وإن أصابوا في كثير من الحقائق التي كانوا في سبيلها ، فإنهم لن يصلوا إلى الحقائق الكاملة في هذا الصدد لأن العلم فيه بمحض الصواب ، إنما هو علم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

وهذا واضح في دلالة تركيب الآية ـ هدى الله هو الهدى ـ لأنها كقولك أدب زيد هو الأدب ، وكرم علي هو الكرم ، وشعر خالد هو الشعر ، وهذا واضح في أنك تقصر الأدب على أدب زيد ، والكرم على كرم علي ، والشعر على شعر خالد ، وكذلك الهدى مقصور على هدى الله ، وكما أن هذه التراكيب تفيد أن أدب غير زيد ، أدب ناقص ، وكرم الرجال غير كرم علي لا يعد كرما ، وشعر الشعراء غير خالد لا يعد شعرا ، كذلك تفيد الآية أن مناهج البشر ، ومعطيات عقول الحكماء في باب هداية الإنسان كلها ناقصة ، وأنه إن صح أن يعتد بجانب منها ، فإنها لا تتوافر كل جوانبها على الصحة ، ولا تمضي مسالكها كلها على الصواب ، وإنما ترى صوابا هنا ،

---

(١) البقرة الآية ١٢٠

وخطأ هناك، وهداية هنا، وضلالة هناك، ولذلك كان كفاح العقول المستقلة والبعيدة عن الوحى من الفلاسفة والحكماء نظريات يدفع بعضها بعضا، ويقوم بعضها على أطلال بعض، وظل تاريخ الفكر فى هذا الجانب أشبه بالأمواج الدافقة فى البحر المواج يركب بعضها بعضا، ويبتلع بعضها بعضا، ويفنى بعضها فى بعض، كل ذلك فى عتو وصخب، لا سكون معه ولا قرار، ولم يهنأ الإنسان هناءة أمن واستقرار إلا فى تلك الفترات التى التزمت فيها بعض المجتمعات بالهدى المطلق الذى هو منهج الله، وقد عاش المجتمع الإسلامى مثل هذه الفترات حين كان الإسلام حيا فى القلوب، وإلىها يشير الخبر الذى يقول: كانت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، ما تخاف أحدا إلا الله تعالى، وبهذا التصور للتعريف فى الهدى الذى لا يعنى هداية العقل، وإنما هداية الشرع يكون قوله عليه الصلاة والسلام بعد ذلك «وآمن بالله ورسوله» جاء تخصيصا بعد تعميم وكأنه جعل الإيمان بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام هو الهدى، وكأن الهدى الذى كان فى شرائع الأنبياء السابقين، إنما صار بعد سنة محمد ﷺ جزءاً من الهدى الكامل الذى جاء فى رسالة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه، وبهذا صار غير مستقل بالهداية إذا انفصل عن هذه الرسالة، وبهذا يتحدد الهدى، ويضيق مدلوله، ويتركز فى هذه الرسالة الخاتمة.

وقوله «وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله» يتضمن الجملة السابقة لأنه إيمان بالله ورسوله، ولكنه يزيد على ذلك النص على الشهادتين اللتين هما من هذا الدين كالقاعدة من البناء، ولأن الخطاب موجه إلى من يطلب منه تحصيل هذا الأصل الفارق بين الإيمان والكفر.

ثم إن فى هذا شيئاً ليس فى سابقه. لأن فيه نصا على نفى الألوهية عن غيره سبحانه، وقصرها عليه حقيقيا تحقيقيا، كما يقول البلاغيون، فلا تتعداه

إلى غيره البتة ، وهذا أمر لو تعلمون عظيم لأنه يعنى تطهير الوجدان الإنسانى من الإحساس الخاطىء ، والمريض بأشكال الآلهة الأرضية ، وخلوصه للإحساس بألوهية واحدة ، وهيمنة واحدة ، وسيطرة واحدة ، ليس فى الوجدان إحساس بنفع الإنسان وضره ، ولا برهبته وخشيته ، وإنما الرهبة لله ، والخشية لله ، ولا تطلع إلا إلى الله ، ولا تعظيم ولا إجلال إلا له سبحانه ، ولا حس بخير ونفع إلا من جهة واحدة هى جهته له الأمر كله ، وليس لغيره شىء من الأمر .

وهذا اليقين حين يفرغ فى القلب ، ويتوفر فى الضمير يجعل من النفس طاقة هائلة فى الخير والبناء الطاهر ، والعمل النظيف ، لأنها حينئذ تندفع فى أمر الله خفيفة نشطة ، قد تخلصت من كل أثقال النفاق والمداهنة ، وماشابه ذلك مما هو وليد الإحساس بالنفع والهيمنة والقدرة لغير الله ، أو قل مماهو وليد الإحساس بآلهة صغيرة مما تفسد به نفوس الناس وحياتهم ، وتقتل معنى الإنسانية فيهم ؛ ويلح التعبير على هذا المعنى إلحاحا شديدا ، فقوله : لا إله إلا الله ظاهرة فى الوحدانية ، ونفى الشركة ، ولكنه مع ذلك أردف قوله وحده ، فنص على الوحدانية وافردها ، ثم قال لا شريك له فنص على نفى الشركة ، وهذا كله تأكيد فى تخليص النفس من الإحساس ، كما قلنا بأى شكل من أشكال الهيمنة والسيطرة ، إلا أن تكون لله وحده ، وهذا تكريم للإنسان ليس بعده تكريم .

ثم ترى قوله « وأن محمدا عبده ورسوله » يؤكد الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ويجعلها قرينة للإيمان بالله الواحد لا شريك له ، وهذا تكريم واضح ، ومع هذا نجد الأسلوب يحرص حرصا ذكيا على تثبيت بشرية محمد ، وأنه فى هذا السياق ليس إلا رسولا وعبدا ، وقد ذكره باسمه الخالص فى البشرية ـ محمد ـ وذكر أنه عبد فليس له من أمر ربه ، إلا ما للعبد من أمر مولاه ، وهو السمع والطاعة ، وذكر أنه رسول يبلغ

ما أرسل به بأمانة كاملة ، والتنصيص على هذه المعانى فى كلمة الشهادة التى هى من الدين أساس كما قلنا ، يعنى الحرص على إشاعته فى النفوس ، وهى معان كما ترى ذات أهمية فى تكوين وبناء النفس الإنسانية بناء قويا نبيلا ، ثم فيه طرق الوجدان طرقا دائما بعبودية محمد ، وأنه خالص فى البشرية ، وهذا سياج حصين لنقاء التوحيد وبقائه خالصا لله الواحد لا شريك له .

وهذا لو تأملته هداك إلى وجه من وجوه البينة والإعجاز فى صدق هذه الرسالة .

وأقل ما فى ذلك أنه لو كان هذا الذى يقول من وحى نفسه ، وليس من وحى ربه ، لما استساغ أن يضع لنفسه موضع العبد المأمور بين رجال تشتد أنفتهم أحيانا ، ويعظم فى نفوسهم الإحساس بالذات والاعتداد بالنفس ، فيضربون رؤوس آلهتهم ويكفحون وجوهها ، ولهم فى هذا العبث بالآلهة حكايات طريفة ومعتمة .

وقوله عليه الصلاة والسلام « وأدعوك بدعاء الله تعالى » استئناف بالواو لبيان الغرض المقصود من الرسالة ، وكأن الذى مضى إنما هو مقدمة وتوطئة لهذا المقصود .

وقوله « بدعاء الله » تأكيد لمعنى أنه إنما يدعوه بدعاء الله ، وأن محمدا ليس له من الأمر شىء . وأنه بشر وعبد ورسول ، وما عليه إلا البلاغ وهذا أغرى بالقبول ، وأدعى إلى التأمل فيما دعاه إليه ، ولإبعاد منه عليه الصلاة والسلام لنفسه لتبقى الدعوة ، وأمر الشرع خالصا لله ، ومن جهته سبحانه .

وقوله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة بيان لوجه قيامه بهذه الدعوة وتوضيح لوجه أهليته لها ، والتأكيد بقوله « فإنى أنا رسول الله » لتحقيق ذلك وتقريره ، وتكرار الضمير فى قوله « أنا » لتأكيد المسند إليه ، وهو

ذاته الشريفة صلوات الله وسلامه عليه ، لأن المقام يدعو إلى ذلك ، من حيث إن المطلوب تحديد الذات الموصوفة بهذا الوصف الكبير ، والمطلعة بهذا الأمر الجليل ، وهو الرسالة من جهته إلى الناس كافة أحمرهم وأسودهم .

وهذه الفاء فى قوله : فإنى أنا رسول الله نص فى السبب والعلة فى قيامه بهذه الدعوة بدعاء الله ، ولو جرى الأسلوب على تركها ، وقال إنى رسول الله وبنى الكلام على الفصل لكانت العلة خفيفة فى هذا الفصل ، لأن هذه الجملة ستقوم مقام الجواب عن سؤال اقتضته الجملة الأولى ، ولوح معناها إليه ، وكأن القائل استشعر فى نفس السامع هاتفا يقول : ولم تدعو بدعاء الله؟ وما شأنك فى هذا الأمر؟ ولم أقمت نفسك مقام السفير والرسول؟ وأقحمت نفسك بين الله وخلقه؟

أراد أن يجيب عن هذا ومثله بقوله إنى أنا رسول الله ، ولكن لما بنى الأسلوب على ذكر هذه الفاء أبرز هذه العلة ونص عليها ، وكأنه وصل الحديث عن دعوته بدعاء الله بعلته وباعثه فصارت الجملتان بذلك جملة واحدة تتصل الثانية بالأولى وصلا ظاهرا . تحكمه هذه العروة الظاهرة التى هى الفاء .

وقوله تعالى : لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ترى فيه نغمة التهديد والترغيب تعلوان وتسمعان .

فهذا الإنذار ، وهذا البلاغ عن الله سبحانه إنما ينفع إذا صادف قلبا حيا إذا نبهته تنبه ، وإذا لفته التفت ، وإذا حدثته سمع ، وإذا سمع تأمل ، وإذا تأمل أدرك وإذا أدرك الحق أذعن وانقاد .

هذا هو الحى الذى يفيد معه الإنذار ، أما من ليس كذلك ، فهو بمثابة

فهو بمثابة الميت ، لا ينبعث إذا بعثته ، ولا يستثار إذا أثرته ، ولا يجيب إذا دعوته فهو متخاذل مع كل مجهود ، وكأنه قد عطلت فيه إمكانات الحياة ووسائل الوجود ومثله يحق القول عليه ، أى يقع عليهم ما حدده الله لهم من هزيمة وانحدار فى مواجهة الطائفة الحية المستجيبة ، يقع ذلك وقوعا حقا مقدراً بحسب ما يجب ، وفى الوقت الذى يجب ، وقوله يحق القول من قولهم حق يحق كقوله تعالى « حق القول منى » وقوله « وحقت كلمة ربك » أى وقع بحسب ما يجب ، وفى الوقت الذى يجب .

وقوله : فأسلم تسلم ، تكرار الغرض وفيه نص على المراد وهو الإسلام وهما كلمتان تمثلان جملتين :

الأولى : طلبية نمطها أمر وهو قوله « أسلم » .

والثانية : جملة تطوى وراءها جملة أخرى ، وحرف شرط يربط المحذوفة بالمذكورة ، والأصل : أسلم فإن تسلم تسلم فالسلامة مشروطة بالإسلام ومقيدة به ، فإذا لم يتحقق منك الإسلام فارقتك السلامة ، وعرضت نفسك وملكك للضياع ، والدمار .

ونلاحظ هنا أن نغمة الوعيد لما علت فى قوله لأنذر من كان حيا خففها هذا التعميم ، أما هنا فإن الوعد والوعيد متجهان مباشرة إلى كسرى ، ومتمحضان إليه ، وفعل الأمر هنا يعلوه ويأمره ، وجواب الشرط وفعله يحددان له الجهتين جهة السلامة ، وما يضاد السلامة ، وعليه وحده وبمحض اختياره أن يقرر ويختار .

وإذا عرفت أن المسلمين ما فتئوا يصدمون ملك كسرى بسراياهم وكتائبهم وجيوشهم حتى تهاوى تحت طرقاتهم ، وهو الملك الشامخ بعد ملاحم من الصراع ، هى آية فى البسالة والبطولة ، وأن سعد بن أبى وقاص حين

دخل بجند الله ايوان كسرى أقام فيها صلاة سماها صلاة الفتح ، وأن القول قد حق عليه وإنه لم يسلم ، فلم يسلم ، وأن الرسول كتب له ذلك وهو فى دار الهجرة والإسلام فى قل ، والمسلمون عاجزون عن أن يستخلصوا بيوتهم وأهليهم من قبضة قريش فى مكة ، وأن كسرى حين توجه إليه هذا الكتاب الحاسم كان يملك نصف الأرض إذا تأملت ذلك كله وكنت ممن يحسنون تأمل سير التاريخ واطراده حين يتحرك بطاقة الإنسان أدركت أن هنا أمراً إلهيا فى هذا الكتاب ، لأنه ليس فى احتمالات التقديرات البشرية أن يتقدم رجل خارج من مكة ثانى اثنين يمكر به الذين كفروا ليثبتوه أو يقتلوه على إنذار كسرى الذى كان يملك نصف الأرض كما قلت ، وكانت الروم هى القطب الثانى ، وكانت الفرس قد هزمتها فى صراعات دائمة ، وكأن أصابع كسرى تمتد إلى النصف الثانى ، ثم تطرد أحداث التاريخ فى سرعة مذهلة ولا يمضى أكثر من عشر سنوات إلا وصاحبه عمر بن الخطاب قد ضم إلى دولة الإسلام ملك كسرى ، ويحق القول على كسرى ، ويبتلعه التاريخ .

وحين تنظر إلى الرسالة من جهة بنائها العام نظرة ثانية . تجدها تمضى على نظام فى الأسلوب محكم فقد بدأت كما قلت بالسلام لمن اتبع الهدى ، فلم تكن فى الخطاب جافية ، ثم لم تصانع على حساب الدولة ، ثم أخذ الأسلوب يتحدد من الهدى العام ويتركز فى الشهادة بالوحدانية ، وبرسالة محمد عبده ورسوله ، ثم يتجه الأسلوب إلى الغرض الأساسى بعد التوطئة ببيان الهدى وأن السلام معقود به ، وعند هذا الغرض الأساسى يحتاط احتياطا آخر ، فيذكر أنه يدعوه بدعاء الله ، ويتشعب الأسلوب قليلا ليبين وجه أنه يدعوه ، وشرعية قيامه بذلك ،

ثم يعود إلى الغرض مرة ثانية فى أسلوب حاسم ، ودفعة عالية ساعد

عليها هذا الجناس فى قوله أسلم تسلم ، ثم إنك ترى الرسالة فى هذا الإحكام والإيجاز والتحديد المنضبط يرجع آخرها إلى أولها ، ويرتبط طرفاها ارتباطا قويا ظاهرا ، فالسلام فى الأول لمن اتبع الهدى ، والسلامة فى الآخر لمن أسلم(١) .

(١) قراءة فى الأدب القديم د / محمد أبو موسى ٢٦٣ - ٢٧٥

من روائع النثر فى صدر الاسلام

خطبة لأبى بكر رضى الله عنه

عندما بايع المسلمون أبا بكر رضى الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ ، رأى أن يبين للناس نظامة فى الحكم ، وطريقته فى سياسة الأمة ودستوره فى معاملة الناس .

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى(١) .

أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه . أقول قولى هذا . وأستغفر الله لى ولكم .

لقد بين الصديق رضى الله عنه أنه ليس خيرا من الناس، وليس له فضل عليهم ، إنما هو واحد منهم ، ورجاهم أن يعينوه إن رأوه على حق ، وأن ينصحوه إن رأوه على باطل .

وأمرهم بطاعته إذا أطاع الله ، وبمعصيته ، إذا عصى الله .

وذكر أنه لا فرق عنده بين قوى وضعيف ، بل إن الضعيف فى نظره أقوى الناس فيأخذ له حقه ، والقوى فى نظره أضعف الناس ، فيأخذ الحق منه .

---

(١) أرشدونى .

هذا وفى الخطبة إيجاز قصر واضح حيث كثرت ، معانيها مع قلة ألفاظها وفيها مقابلة حسنة بين الحق والباطل ، وأعينونى وسددونى ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الضعيف والقوى ، وبين آخذ الحق له ، وآخذ الحق منه .

والخطبة — تنطق بعدل سيدنا أبى بكر وتواضعه ، وأدبه الرفيع ، رضى الله عنه .

خطبة عمر رضى الله عنه

يوم ولى الخلافة

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس: إنى داع فأمنوا(١).

اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك ، بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك ، وأهل الدعارة والنفاق(٢) من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم .

اللهم إنى شحيح(٣) فسخنى(٤) فى نوائب المعروف(٥) ، قصدا من غير سرف ، ولا تبذير(٦) ، ولا رياء ولا سمعة(٧) واجعلنى ابتغى بذلك وجهك والدار الآخرة .

اللهم ارزقنى خفض الجناح ، ولين الجانب للمؤمنين(٨) .

---

(١) أدعو الله أن يستجيب .

(٢) الدعارة : الفساد والفجور ، والنفاق إظهار شىء وإخفاء ضده .

(٣) بخيل بمال المسلمين .

(٤) سخنى : اجعلنى سخيا كريما .

(٥) يريد بذل المال فى سبيل الخير .

(٦) القصد الاعتدال والسرف : ضده ، والتبذير : تبذير المال فى غير وجهه وبلا ضرورة .

(٧) الرياء : العمل بغير إخلاص . والسمعة : الاستماع ، والمراد من يفعل شيئاً ليراه الناس ويسمعوه فيكسب مظهرا كاذبا ولونا خادعا .

(٨) لين الجانب كناية عن المعاملة الكريمة .

اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان ، فألهمنى ذكرك فى كل حال ، وذكر الموت فى كل حين .

اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقنى النشاط فيها ، والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك .

اللهم ثبتنى باليقين ، والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك(١) والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى وإصلاح الساعات(٢) ، والحذر من الشبهات(٣) .

اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت . إنك على كل شىء قدير .

إنه برنامج حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلنه للناس فى أول حكمه فى صورة دعاء .

إنه يرجو أن يكون لينا رحيما بالمطيعين ، غليظا شديدا على العاصين وأن يتحلى بالكرم فى مواطن الخير من غير تبذير ولا رياء .

وأن يرزقه الله العطف والرحمة بالمؤمنين ، وأن يبعد عنه الغفلة وأن يذكر الله ويتقيه ، ويتذكر الموت ويعمل لما بعده .

كما يرجو أن يقوى على الطاعة ، وأن يثبته الله باليقين والبر والخير وأن يذكر دائما الوقوف بين يدى الله ، حتى لا يقترف فى الدنيا ما يغضب

---

(١) المقام : الوقوف ، يريد يوم القيامة . وما فيه من رهبة وشدة .
(٢) المراد إصلاح ما يحدث فى ساعات الليل والنهار .
(٣) الأمور التى يشك فيها أحلال هى أم حرام .

ربه ، وأن يرزقه الله دائماً الخشوع ومحاسبة النفس ، ويقظة الضمير ليبعد عن موطن الشبهات ، التى يشتبه فيها الحرام والحلال ، وأن يبصره بأمور دينه ، وفهم كتابه ، وتدبر معانيه ، والعمل وفق ما يدعوه إليه الدين القويم والفهم الرشيد .

هذا وفى الخطبة احتراس - وفى قوله : من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم ، وفى قوله : من غير سرف ولا رياء ولا سمعة .

وفيها مجاز عقلى فى قوله: إصلاح الساعات ، لأن المراد اصلاح ما يحدث منه فيها ، والمجاز فى النسبة الإيقاعية .

وتتجمل الخطبة بالاقتباس من القرآن الكريم فى قوله « اللهم ارزقنى خفض الجناح » .

كما تمتاز بقوة الألفاظ وشرف المعانى ، والبعد عن التكلف فى القول والزخرف فى الأسلوب .

وقد جاءت هذه الخطبة وافية بالغرض المنشود ومحققة للهدف المأمول .

والحمد لله أولا وآخرا ؟

دليل الكتاب

الصفحه　　　الموضوع